رواية

كوستى ساجاراداس

عذراء أسيوط

ترجمة: عبد السميع المصري

أقلام عربية
للنشر والتوزيع

عذراء أسيوط

أقلام عربية
للنشر والتوزيع

ساجا راداس، كوستي.
عذراء أسيوط/ تأليف كوستي ساجا راداس، ترجمة عبدالسميع المصري. - القاهرة، أقلام عربية للنشر والتوزيع، 2017، 201 ص 14.5×21.5 سم.

1- القصص اليونانية
أ- المصري، عبدالسميع (مترجم)
ب- العنوان 883

رئيس التحرير: طارق هاشم
العنوان: عذراء أسيوط
المؤلف: كوستي ساجا راداس
المترجم: عبدالسميع المصري
طبعة أقلام عربية الأولى 2017/ 2018
رقم الإيداع: 16248/ 2017

العنوان: 1 كريم الدولة - أمام جروبي - طلعت حرب
تليفاكس: 20225740228 + موبايل: 201229264063 +

info@daraqlam.com

Aqlam Arabia Bookstore

www.daraqlam.com

© جميع الحقوق محفوظة لدى دار أقلام عربية للنشر والتوزيع

عذراء أسيوط

تأليف

كوستى ساجاراداس

ترجمة

عبد السميع المصري

مقدمة

مؤلف هذا الكتاب كوستى ساجاراداس أديب يوناني كان عميدًا للجالية اليونانية بأسيوط، وقد ألَّف إلى جانبه عدة كتب قصصية واجتماعية، من بينها مجموعة قصص قصيرة عن حياة الفلاحين المصريين، ودراسة اجتماعية لمشاكل المتمصرين، وكتاب "فتاح حتب الفيلسوف المصري" مضيفًا إليه فصولًا من الأدب المصري القديم.

وقد عاش كوستى ساجاراداس معظم سني حياته في مصر وعاصر الثورة المصرية التي شبت نيرانها سنة 1919 في أعقاب الحرب العظمى وتأثر بما في مجتمعنا المصري من بساطة وسذاجة، وبما فطر عليه الشعب المصري من كرم ووفاء.

كما لاحظ بعين الفنان المدقق عوامل الانحلال التي بذر بذورها الاحتلال البغيض، والتي أخذت تسري على شكل آفات مروعة بين أفراد المجتمع لتعمل على تقويضه.

وكأي فنان أخذ يسجل مشاهداته، فكانت هذه القصة التي عبرت عن شعوره الطيب نحو وطنه الثاني مصر والتي بعثها صيحة، وإن لم

تكن مدوية إلا أنها منبهة إلى مواطن الخطر وشراك الاستعمار.

ولقد نشرت باللغة اليونانية عام سنة 1924 فاستقبلتها الدوائر الأدبية في مصر واليونان بالتقدير العظيم والثناء المستطاب، وظلت تنتظر النشر بالعربية، بل كانت هذه هي أمنية المسيو كوستى ساجاراداس العزيزة إلى أن حققها الله له، وإني أقدمها إلى قراء العربية بالنيابة عن مؤلفها تحية منه لمصر والعروبة، وإعرابًا منه على شعوره بالشكر وعرفان الجميل، جميل مصر العزيزة.

عبد السميع المصري

مقدمة المؤلف

مكانة المرأة في المجتمع ووجودها بالنسبة إلى الرجل والحق في الحب وحقوق الرجل كسيد للأسرة وغيرها من المواضيع، كانت دائمًا محل بحث وحديث الأستاذ كامل، بطل هذه القصة، وهو محامٍ من أسيوط ذو ثقافة غربية، يتنازع نفسه عاملان أحدهما ما أثقلته به الوراثة من تقاليد، وما يُحتِّمه التطور الحديث من مجاراة روح العصر، وما كان هذا الصراع الذي يعمل في نفسه إلا صورة من البيئة فيما حوله، إلى أن بدأت تتفتح لمدنية الغرب وتتلفت نحوها.

وقد حسب الأستاذ كامل لفترة من الزمن، أنه وُفِّق إلى اكتشاف روابط جديدة لبنات حواء، تحدد علاقتهن بالمجتمع، غير الروابط التى تحدد علاقة الزوجة أو الخليلة أو الجارية، لكنه وجد نفسه يواجه مشاكل عديدة معقدة وأخذ يسأل نفسه: هل الرجل مخلوق كامل؟ أم ترى أن الطبيعة قد أعدت المرأة لتكون نصفه الآخر الذي يكمل وجوده بما يقدمه من أسباب الحركة والبقاء للجنس الإنساني؟

وكان وراء كل هذه الأبحاث نبيهة، تلك الزهرة اليافعة التي كانت تتفتح لربيع الحياة في عامها السابع عشر.. لكن الواقع سخر من مثالية المحامي الشاب، وأرغمه على الاعتراف بفشله الذريع، بعد

أن استيقظ ذات صباح على حقيقة مُرة، لقد نسي في غمار تجاربه وأبحاثه ومناداته بالإصلاح والعدالة وجهاده في الحياة، أن يعطي نبيهه حقوقها في الحياة وأن يعترف بما لها من شخصية ووجود.

لقد كان اهتمامه حتى تلك اللحظة منصبًّا حول نفسه ونفعه، لكن نبيهة وقفت لتذكره بأن الأنانية لها حدود يجب ألا تتعداها وبأنه ليس عليها وحدها أن تعطي بل يجب أن يكون لتضحيتها تجاوب.

ولمَّا كان كامل قد عقد العزم على تقبل ما تأتي به الحياة من آلام ومسرات، وآمن في نفسه أنه قد تخلص من تقاليد الماضي البالية، فقد انتهى إلى الاعتقاد بأن الزواج مبعث شقاءٍ للإنسان لا ضرورة له.

ولمَّا كان في نفس الوقت يمني النفس بحياة عصرية متحضرة يكون هو منشىء قواعدها وقدوة لها فقد ترك متعة الحب وفرصه الذهبية تفلت من بين يديه ومضى هو في الحياة مبلبل الخاطر حائر النفس يخشى الاستجابة لرغبات جسده ومتاع نفسه.

لقد حاول أن يخلق من مجتمعه شيئًا أفضل مما كان. مجموعة متفاهمة متحابة، بينها ما هو أكبر من المصلحة المادية البغيضة إلى نفسه لكنه انتهى إلى الوحدة الموحشة، فريسة لآمال فاشلة لم تتحقق.

لقد كان عقلية ناضجة وشخصية نظيفة ولا شك، لم تستطع أن تتفاعل مع الحياة فيما حولها.. إنه شخصية ما زلنا نرى الكثير منها في المجتمع في كل وقت.

ولم تكن نبيهة أقل منه صفاءَ نفسٍ وصراحة عندما أخذت تسرد عليه مأساتها وحقيقة مشاعرها.

وبجانب بطلينا نرى في القصة اثنين هما النقيض لهما.. عم نبيهة وسيدها الأول حسن بك حكمدار بوليس المدينة، فكلاهما يتفق في المبدأ وفي خروجهما على أوضاع المجتمع التي فرضتها حكمة الأجيال التي حددت العلاقة بين المرأة والرجل، غير أنهما يختلفان في طريقة العمل، فبينما الأول يخفي مشاعره، ترى الثاني يرتكب فجوره في جرأة ووقاحة. ومع ذلك فما استطاعا أن يغيرا شيئًا من أقدارهما التي سخرت من كل ما عملا.

أما أسيوط مسرح القصة فهي موطن فيلسوف من كبار الفلاسفة القدماء يدعى أفلاطونس، كان من مؤسسي الأفلاطونية الحديثة، بل هي أعرق من ذلك تاريخًا. إنها مدينة فرعونية قديمة تزين تلالها الغربية مقابر الفراعنة القدماء، كما انتشرت في جبالها أديار المسيحية الأولى التي لجأت إلى حماها في عصرها الأول ويجري النيل الخالد في شرق المدينة فيهب لها ولما حولها الحياة والجمال.

وفي الصفحات الأخيرة من القصة تسجيل محايد لِما طرأ على أسيوط من تطور في العهد الحديث، ولِما وقع في المدينة من حوادث دامية سنة 1919، كنت لها شاهد عيان، سيتبين منه مدى التناقض العجيب الذي كان يسيطر على تفكير ومشاعر الجماعات والأحزاب

التي وجهت الحركة في ذلك الوقت وكيفية استجابة الجماهير والأفراد لهذه التوجيهات.

لقد اختلطت معاني الوطنية بالميول الفطرية، حتى ليتساءل الفرد: أَمِن المحتَّم عندما تنطلق الجماهير ساعية وراء الحرية أن تنطلق معها الرغبة في التخريب والتدمير؟

لكن من الإنصاف أن أذكر أن المصريين في حركتهم لم يرتكبوا شيئًا من الوحشية التي اشتهرت بها الثورة الفرنسية ولا القسوة البالغة التي اقترنت بحركة كرومول في إنجلترا وسوَّدت صفحاتها.

أخيرًا أرجو أن أكون قد أديت بهذا العمل بعض الجميل لوطني الثاني مصر.

ك. س.

الفداء

كانت أشعة الفجر الوليد تتسلل برفق في ظلمة الليل، وقد هدأ أخيرًا هذا الحي الذي لا يعرف السكون إلا بعد منتصف الليل بكثير.. ويا ليتها ضجة العمل النافع والفكر السليم.. لكنهم أناس يتحركون، وتلقاهم فلا تشك في أشخاصهم، بل لعلك تنظر إلى مظهرهم باحترام، ولعله يروعك ما يحيط بهذا المظهر من غموض وما يوحي به من أسرار.

إنما لا تستطيع سيدة تحترم نفسها أن تظهر في هذا الحي أبدًا، وإذا سارت هناك ولو في وضح النهار، فقد انهارت سمعتها إلى غير رجعة.

ويستطيع المتأمل أن يلمح وسط الظلام وجوهًا متلصصة تختفي داخل سيارة مسرعة أو في ركن عربة يجرها جواد واحد، وترى أصحابها وقد رفع أحدهم بنيقة معطفه أو غيَّر من وضع طربوشه، لكن شخصياتهم لا تخفى على أهل المدينة، ومعظمهم من الشباب الثائر على التقاليد، أو أزواجًا هاربين من جحيم حياتهم المنزلية أو أعزب يخشى أعباء الزوجية..

أجل لقد كان الحي يضم بين جوانبه تلك الفئة المنبوذة من المجتمع على مَرِّ العصور، التي يعدها معظم الناس أعضاء فاسدة من مجتمعهم أو شرًّا لا بد منه، بينما يراها بعضهم كصمام الأمان الذي في القاطرة، يقيها الانفجار.

وإنك لتعجب لأن يسمح المشرِّع في مجتمعٍ عجز الزمن عن المساس بتقاليد الأسرة فيه ومقوماتها، بقيام هذا العالم الصغير الشاذ، في وجوده القائم على الرذيلة البعيد عن الشرف في علاقاته الجنسية وغيرها.. إن وجوده ولا شك مثير للنفوس، داعٍ دعوة سافرة إلى الخروج على التقاليد، خالق للمتناقضات العجيبة في هذا المجتمع.

فإذا كان الرجل بصحبة زوجه التعسة أو إحدى قريباته المحجبات ورأى إحدى هاتيك البغايا صدفة في الطريق، فإنه يشيح عنها بوجهه اشمئزازًا، لكن ما يكاد الليل يرخي سدوله حتى يتخذ طريقه إليها ليسعد بصحبتها ساعة ويسمعها من حديث الغزل أَرقَّه، ومن معسول القول أفضله، بل ربما كان لها عاشقًا يركع عند قدميها ويقسم لها على حبه وإخلاصه الأبدي.

وإنك لتدهش لِما تراه من الانفعال على وجه سيدة البيت، عريقة النسب، إذا ما جلست خلف (المشربية) مع الأصيل ووقع نظرها على إحدى هؤلاء النسوة وقد جلست داخل عربة في عظمة مفتعلة.. إنها سرعان ما تنسحب إلى داخل البيت عابسة مستنكرة وقد احتدمت

نفسها بالغيظ الذي لا تـدري مبعثـه، ولا تسـتطيع الإفصـاح عـمَّا يـدعوها إلى الانتفاض من رؤية هذه المرأة العابرة، وما يختلج في فؤادها مـن خـوف كلـما تخيلتها في حليها الكثـيرة وملابسـها الفـاخرة وجواهرهـا اللامعـة.. وفـوق كـل ذلك.. هذا العدد العديد من المعجبين الذين يقدمون مالهم بغـير حسـاب إلى هذه الخارجة الحقيرة..

ولكن لنعد إلى عالم الظلام..

فعندما يقبل المساء وتبدأ الحياة دبيبها في أرجائه والأنوار تعم أنحـاءه، فالنوافذ تفتح على مصاريعها فتبدو منها القطيفة الفاخرة أو الستائر الشرقيـة الجميلة، بينما يجلـس في الشرفـات العليـا أو عـلى المقاعـد المصـفوفة بجانـب الأبواب هذه المخلوقات المحتقرة أو تلك الآدمية المضيعة.

إنهن يجلسن هناك في انتظار طلاب اللذة الرخيصـة ليهـبن لهـم جـذوة حياتهن المقدسة بأرخص الأثمان..

وإذا رأيتهن في جلستهن تلـك رأيـت وجوهًـا أضـناها السـهر والانتظـار وأجسادًا بضة قد لفت في ثياب فاخرة لا تكاد تستر شيئًا، أو الأصح قـد تعمـد صاحباتها أن يتركن أجسامهن نهبًا للأبصار حتى لتحـار أي أعضـاء الجسـم قـد سترة الثوب وأيها قد سها عنه.

وتنبعث من أرجاء الحي رائحة كريهة فـتملأ جـوه وتميـزه، كـما ينـتشر الوحل والأتربـة في أرجائـه وأزقتـه، ولا يعنـى أحـد بنظافتـه أبـدًا، لكـن رغـم

كل هذا تصافح أذن المَارِّ أصوات مبحوحة تنطلق بالغناء، أو أصوات غليظة نكراء تردد الأغاني المبتذلة الخليعة وتنبعث من الشرفات الضحكات المرحة والأصوات المجلجلة، بينما ينساب من بعض النوافذ أنغام (القانون) أو العود مع الناي الحالم أو صاجات الرقص التي تنبئ بأن القوم يمتعون أنفسهم بمشاهدة إحدى الرقصات البلدية.

أما في الأجزاء الأقل شأنًا فإنك تسمع الطبلة لا تكف عن العمل أو تسمع (الفونوغراف) يردد أغاني المطربين والمطربات، وإذا كنت صبورًا على الاستماع وحسن الإصغاء فلا شك أن محصولك اللغوي سيزداد كثيرًا بفضل ما تسمع من الحوار العجيب، الذي يدور بين النوافذ وعلى الأبواب وفي منعطفات الطريق في صراخ مزعج وبكلمات كلها الفحش والبذاءة، وقد ينقلب هذا الحوار الصارخ والتعبير بالكلمات إلى تعبير أبلغ بالأيدي والأحذية والشباشب وجذب الشعر والعض بالأسنان وقد يمتد هذا الشجار إلى سكان الحي جميعهم..

إنها نفوس تغلي وقلوب قد ماتت حقدًا على حظها من الحياة.. كم من مآسٍ ضمتها هذه الجدران وانطوت عليها أضلع صاحباتها من ضحايا المجتمع ومواضعاته.

لكن رغم قسوة المجتمع عليهن، فكثيرًا ما تجد بينهن إخلاصًا نادرًا وتضحية تبلغ حد الفداء، مما يعز مثيله بين قصور السادة، من أشراف الباشوات والبكوات، السامقةِ التي تزين ضفاف النيل.

إن هذا المجتمع ليبدو أمامي كقلعة إقطاع تريد أن تحمي هـذا الظلـم الاجتماعي المبين بالدفاع عن سكانها الأشقياء.. الجميع فيه تعساء.

ذكرنا من قبل أن الحي كان قد بدأ يستريح من عناء حيـاة الليـل، لكـن كان هناك مسكن الست نفيسة الشهير ذو الأثاث الفاخر والعملاء الممتـازين.. فمنذ ساعة قبل الغسق وجميع سكانه منهمكون ذهابًا وإيابًا وصعودًا ونـزولًا في أنحاء المكان على غير عادة.

وأخيرًا تجمعن.. السمراء قدرية ذات الشعر الأشقر، وهانم ذات العينين الدعجاوين، ورتيبة التي اشتهرت في الحي بأسره بصدرها المرمري ذي النهـدين النافرين، وزكية ذات العيون الزرقـاء والـبشرة الناصـعة البيـاض، وأمينـة ذات الصوت الذهبي الحنون.. وقد ارتدين الملاءات السوداء وتأهبن لمغادرة المكان.

ووقفت ثلاث عربات بالبـاب في الانتظـار بيـنما كـان سـائقوها ينقلـون إليها سلال الطعام من كل لون، وفاخر الشراب، وجميل الأبسطة مما كان ينبئ عن يوم سعيد ورحلة موفقة.

كان الغرض من الرحلة مثار الحديث بين أهـل البيـت جميعًـا ومبعـث فضولهن.. إنهن يذكرن أن محمود جندي البـوليس والمراسـلة الخـاص بـحضرة الحكمدار، قد حضر إلى البيت ونـادى السـت نفيسـة بالـذات وقـت الظهـيرة واختلى بها في إحدى الحجرات حيث دار بينهما حديث قصير خـرج عـلى إثـره سريعًا.

فالتففن حول الست نفيسة وقد برح بهن الفضول والخوف وألححن عليها حتى أنبأتهن بسر هذه الزيارة غير المنتظرة.. هذا السر الرهيب.

لقد كان عليهن استقبال ضيفة جديدة.. فتاة جميلة غضة الإهاب، لكنها مع الأسف ناقصة الخبرة في حياة الليل غير عالمة بخفاياها ولا أسرار العمل فيها.

ولم يطل انتظارهن.. فما إن أرخى الليل سدوله حتى أقبل الجندي على البيت ثانية ومعه فتاة لا تتجاوز السابعة عشرة من عمرها.. ناضرة الشباب شديدة الحياء عذرية النظرات.

لم تكن ترتدي حريرًا أو قطيفة.. لا ولم تحلِّ جيدها ولا ذراعيها بشيء من الذهب أو الألماس.. لم يكن عليها سوى جلباب بسيط من القطن و(خلخال) ريفي من الفضة يحلي كعبيها وينبئ الناظر عن ماضٍ سعيد، وعلى رأسها منديل من الحرير قد نقشت أطرافه بالإبرة، لا يكاد يتحكم في تاجها الأبنوسي الأملس الذي يزين وجهها الحالم الجميل ذي العينين العسليتين اللتين تشعان سحرًا وفتنة رغم نظراتها الخجلى المترددة..

أجل عيناها.. لقد كانا كقطبين مغناطيسيين يجذبان بسحرهما كل من وقع بصره عليها.. حتى الحيوان كان يأنس بالقرب منها ولا يمل من النظر إلى عينيها وهو جالس مطمئن إلى جوارها مستسلم لحنانها وعطفها..

لكن هاتين العينين الفاتنتين بدتا في تلك اللحظة ذابلتين محمرتين من أثر الدموع التي لم تجد من يكفكفها، والسهر الطويل الذي لم يرحمها منه أحد وقد ارتسمت حولهما هالتان سوداوان واختفى بريقهما الساحر.

لقد رحبت النسوة بمقدمها رغم استيائهن الظاهر وغيرتهن التي احتدمت نيرانها لمرأى هذه الصغيرة الجميلة، التي قد تصبح منافسة خطيرة لهن.. لكن ليس الأمر لهن وعليهن أن يرضخن لإرادة الست نفيسة وأعوانها.. وقد أرادت لهن الترحيب بها فالتففن حولها يتحدثن إليها، ولم تكن أقل منهن دهشة لوجودها بينهن، بل وحزنًا، وكان من اليسير على الناظر إليها أن يدرك ما يعتمل في نفسها من انفعالات عنيفة، أقلها الحزن العميق والألم الممض الذي ارتسم جليًّا على محياها فبدت بينهن وكأنها تحلم أو في غيبوبة عن هذا الوجود حتى أنها لم تنبس بكلمة ردًّا على العديد من الأسئلة التي انهالت عليها.

ولم تزدد معلوماتهن عنها عمًّا أنبأتهن به الست نفيسة، من أنها غريبة عن المكان وكانت من قبل تشتغل في منزل الحكمدار الذي انتحر حديثًا على أثر نوبة من الجنون كما يقول الناس.

أما هذه الرحلة التي أنفقن ما بقي من الليل في إعدادها واستغرقت منهن كل هذا الجهد، فقد أعدتها الست نفسية لتتيح فرصة لهن ولها للتعارف، ولإعداد نبيهة لحياتها الجديدة بعد ذلك. لقد تجمع الكل

أمام الباب لكن نبيهة لم تكن بينهن، فصاحت الست نفيسة وهي تحاول أن تكسب صوتها الأجش نعومة مصطنعة وحنانًا كاذبًا: "أين نبيهة.. أين بدرنا؟" وتصايح الجمع: "نبيهة.. نبيهة.." فسمعن صوتًا خافتًا من أعلى السلم يقول "هأنذا آتية".

ولم تمضِ لحظة حتى ظهرت بينهن وهي تحاول جاهدة أن تلقاهن بابتسامة مقتضبة.. وعادت نفيسة تسأل: "هل الكل حاضرات ومستعدات؟" وتعالت الأصوات أن: نعم. فتوجه الجمع إلى العربات بين الضحكات الصاخبة المنغمة، وصيحات المرح والنكات الفاحشة البذيئة التي أصبحت جزءًا من حديثهن اليومي العادي مع ما يشبهها من مواضيع فجورهن.

مضت الست نفيسة إلى العربة الأولى مع نبيهة وأمينة وفي العربتين الباقيتين ركب باقي النسوة ومعهن خادمتان من النوبة للقيام على خدمتهن أثناء رحلتهن وعند تناول الطعام.

وصاحت الست نفيسة بالعربجي: "إلى الجبل". فانطلق الركب في الطريق إلى خارج المدينة، بينما عادت هي تستأنف حديثها: "كيف الحال يا نبيهة؟ ألا تعجبك هذه النزهة؟ لقد قمت بإعدادها وعمل كل هذه الترتيبات من أجلك ولإدخال السرور إلى قلبك.. ولعلك تنسين ما يكدرك".

فأطرقت نبيهة خجلًا وشكرًا وهي لا تجرؤ على مواجهة نظرات سيدتها الجديدة، ثم همست بعد لأيٍ: "أكثر الله خيرك يا سيدتي".

"العفو يا بنيتي.. إن من عادتنا في بيتي هذا أن نقوم بمثل هذه الرحلة احتفاءً بكل ضيفة جديدة تنزل بساحتنا، ففي مثل هذه الرحلة تتاح الفرصة للتآلف، والمعرفة الحقة بالأخلاق والطباع، وفي نفس الوقت تستطيع الوافدة الجديدة أن تكشف لنا عن قيمتها ومفاتنها، كما تستطيع أن تصطفي لها صديقة أو حبيبة أو أكثر، لأن الصداقات هامة جدًّا في حياتنا الحرة التي نحياها.. وهي ليست حياة هينة.. إنما تمثيلية يشاركنا في تمثيلها الرجال الذين يشرعون في التمثيل من أول نظرة، فيتملقون ويتذللون حتى إذا ما ارتوت غريزتهم الجنسية انقلبوا مردة جبارين.. وفي صحبتنا زاهدين".

وتوقفت الست نفيسة عن الحديث لحظة، حدجت فيها نبيهة بنظرة فاحصة وقد أعجبها منها حسن إصغائها، كما اطمأنت إلى أن حديثها قد استحوذ على اهتمامها فعادت تتابع الحديث: "غدًا سنذهب إلى البندر لنلقى المأمور من أجل استخراج ترخيص لك بالعمل، ولن يكون ذلك بالأمر الهين بالنسبة إلى صغر سنك.. وسأتعهد لدى البوليس بالمحافظة عليك وبأنك ستعيشين معي وتحت إشرافي ورعايتي وبأني مسئولة عنك، ومقابل هذا يجب أن أتأكد من أنك ستعيشين في وئام مع زميلاتك، إن لم يكن في انسجام تام ومحبة وألفة.. كما يجب أن تضعي نصب عينيك أن واجبك المقدس في حياتك الجديدة هو المبادرة إلى نجدة أي واحدة من زميلاتك إذا اقتضى الأمر أي معونة أو مساعدة، وفي هذه الرحلة سيكون سلوكك

موضع الاختبار وانتقاد الجميع، فكوني عند حسن ظني بك وتـذكري جيـدًا أن الشراب يجـرد الإنسـان مـن القنـاع الأخلاقـي المزيـف ويظهـره عـلى حقيقتـه ويكشف عن طبعه الأصيل وميوله الفطرية، ولعلك فهمـت الآن السر في أني لم أدع أحدًا من الرجال ليشاركنا في هذه الرحلة.

كانت نبيهة تصغي إلى حديث هذه المرأة المحنكة وهـي تسرح الطـرف إلى الشمال تارة وإلى الجنوب تارة، تتأمل الحقول المترامية الأطراف على جانبي الطريق وقد اكتست بالخضرة الجميلة وأثقلت اشجارها بمختلف الثمار.

أما الست نفيسة فقد استرسـلت في حـديثها غـير ملقيـة بالهـا إلى تلـك المناظر الجميلة المحيطة بهـا، أو هـي قـد اسـتغرق اهتمامهـا واسـتحوذ عـلى تفكيرهـا، مـا تحـاول جاهـدة أن تقدمـه إلى تلميـذتها الجديـدة مـن فلسـفة أنضجتها التجارب الطويلة في هذا الحقل العجيب من حقول الحياة.. لقد عـاد صوتها الأجش المنكر يقول: "إن مهنتنا غنية بأسـباب المتعـة واللـذة لكـن لهـا أيضًا مضايقاتها وآلامها الخفية وأخطارها الكثيرة.. المـال سـهل الحصـول عليـه من اللئيم والساذج، لكنه نادرًا ما يبقى في أيدينا.. وإذا نجحت بعد طول مران فترقبي عصرًا ذهبيًّا في حياتك من الليالي الحالمة والثروة العريضة، لكن تـذكري دائمًا أن كل يوم يمضي يأخذ معـه ضريبتـه مـن جمالـك وشـبابك وجاذبيتـك..

فـاحرصي عـلى الوقـت ولا تكـوني حمقـاء، بـل انتهـزي كـل فرصـة للمكسـب والانتفاع بفنك ومهارتك."

وختمـت السـت نفيسـة حـديثها بتمنياتهـا الطيبـة لتابعتهـا الجديـدة ودعواتها الصـالحة وبعـض النصـائح الغاليـة مـن سِـفر أعمالهـا، بيـنما كانـت العربات لا تزال تغذ السـير في اتجـاه الغـرب مثيرة خلفهـا سـحبًا كثيفـة مـن الأتربة، والذين لا يعرفون شيئا عن هذا السهل الممتد غربي النيل مـن جنـوب مدينة ديروط مـن أعـمال مديريـة أسـيوط ليعجبـون لوسـائل الـري البدائيـة المتبعة هناك..

فما زالت طريقة الحيـاض أي غمـر الأرض بالميـاه وقـت الفيضـان هـي طريقة الري الأساسية في هذه المنطقة، ويتم غمر الأرض بتقسيمها إلى أحواض تغطى بالمياه لمدد تتراوح بين أربعـين وخمسـين يومًـا، ويفصـل الأحـواض عـن بعضها جسور على ارتفاعٍ من ثلاثة إلى أربعة أمتـار وفي هـذه الجسـور عيـون لمرور الماء من حوض إلى آخر من أقصى الجنـوب إلى الشـمال وببقـاء الميـاه في أرض الحوض تتاح الفرصة لطمي النيل أن يكسب الأرض خصوبة وقوة.

وهذه الجسور تستعمل كطرق زراعية تصل القـرى والمـدن بعضـها بـبعض، وبعض القرى تقع وسط أرض الحياض فلا يستطاع الوصول إليها وقت الفيضـان إلا بالمراكب الشراعية التي تصبح وسيلة المواصلات الوحيدة وقتئذ وسط هـذه الجـزر

السابحة، أعني القرى الصغيرة التي تبدو كمدن خيالية من مدن القرون الأولى التي يحار الناس في الوصول إليها للتمتع بفتنتها وسحرها وما فيها من ثروات مطمورة وكنوز يركب الناس المخاطر للحصول عليها.

وإن الغريب إذا فاجأه هذا المنظر لَيقف مذهولًا إذ يرى الماء في مكان الأرض التي رآها منذ شهر وقد غطتها سنابل القمح، ويرى المراكب تبعث بها الرياح شمالًا وجنوبًا وشرقًا وغربًا بدلًا من تلك السنابل الخضر التي كانت تداعبها وتميل بها في كل اتجاه.

إن هذا المنظر ليبدو أروع وأكثر فتنة وسحرًا في ضوء القمر الذي يحيل هذه المساحات الشاسعة إلى لجين فضي عجيب.

على جسر من هذه الجسور يمتد من السكة الحديد شرقًا إلى سفح التلال الليبية غربًا، كانت تختال العربات الثلاث بحمولتها وكان الطريق في تلك الساعة المبكرة مقفرًا لا يرى فيه إنسان.

وأخيرًا عبرت العربات قنطرة مقامة فوق مجرى قناة جافة فواجهت التلال مباشرة، وأشرفت على طريقين أحدهما إلى الجنوب تجاه دُرنكة إحدى القرى الصغيرة التي تقع على مشارفها مدافن المسيحيين من جميع الطوائف، والتالي إلى الشمال تجاه هذه المباني المربعة الشهيرة الخاصة بمدفن المسلمين التي تبدو على البعد في صمتها العميق كمدينة أثرية مهجورة.

أما تجاه الغرب فكانت المنحدرات المصعدة في تلال أسيوط التي يطلق عليها المواطنون اسم "الجبل" وهي تلال جرداء قاحلة لا يلفت النظر فيها إلا بضع فتحات بأعلاها، مربعة الشكل في خطوط مستقيمة هي بقايا قبور الأجداد من الفراعين التي أقاموها هناك منذ مئات السنين قبل الميلاد، وعلى بعد بضعة أميال إلى الجنوب أقامت إحدى الشركات آلاتها لاستغلال المحاجر التي يصلها خط فرعي من السكة الحديد لتسهيل نقل الأحجار إلى مراكز التصريف الرئيسية في أنحاء البلاد.

وقفت العربات على بعد خطوات من القنطرة بجوار "السلخانة" وقد بدا على ارتفاع قليل فوق التلال خزان مياه الشرب الذي أقامته شركة مياه القاهرة بينما اتخذت مقرها على شاطئ النيل.

قفزت الست نفسية من العربة محاولة أن تحاكي الشباب في مرحه وصاحت بهن: "انزلن إلى الأرض يا بنات" فتبعنها جذلات خفيفات تجاه الجبل وأخذن في صعود منحدر صغير ارتفع بعده التل فجأة فصرن يتلمسن طريقهن في حذر حتى وصلن إلى سفح من ناحية الجنوب بينما كانت المقابر تختفي عن أنظارهن تدريجيًّا.

أخيرًا أطل عليهن قرص الشمس كما هبت على المكان أنسام الصباح الكريمة، فشعرن كأنما قد تخففن من أعباء الحياة وقيود المدنية التي خلفنها وراءهن في المدينة وأحسسن بسعادة التحرر من

عبودية الحياة وتفتحت نفوسهن للجمال المحيط بهن.. بل إن النفس في انطلاقها تصطبغ أمامها الأشياء حتى التافه منها بصبغة الجمال.

واستمر النسوة في التصعيد في الجبل بينما أخذت المدينة النائمة تستيقظ لتستقبل يومًا جديدًا من أيام الحياة، وكلما أمعن في الصعود كلما تكشفت لهن أجزاء المدينة البعيدة بمبانيها المختلفة الأشكال والأحجام، التي تتخللها الحقول الخضراء في أكثر من موضع ومآذن المساجد وأبراج الكنائس المختلفة لمختلف الطوائف والمذاهب مرتفعة في السماء على أهبة إرسال النداء إلى عباد الله ليهرعوا لأداء حق الخالق عليهم والتأمل في حياتهم ومعادهم.. إنها تذكر هؤلاء الهالكين بحقِّ الروح.. حق القلب أن تلجأ إلى حمى خالقها لتفكر في علاقتها بالعلي القدير ومصيرها بين يديه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.. ولو لحظة من نهار أو ليل، تنتشلهم من سعار المادية وجحيمها الذي غرقوا فيه إلى الآذان.

وظل النسوة يصعدون حتى بدت لهم فجأة إلى الشمال الغربي من مدينة الأحياء مدينة أخرى هادئة وادعة تمتاز باللون الأبيض الغالب على كل شيء فيها.. أرضها ومبانيها وسكانها.. ويطبق عليها السكون ويحف بها الجلال والروعة.. لكنها عارية من كل صور الحياة.. فلا زرع ولا ضرع لكنها شوارع وأحياء غارقة في صمت ترتفع في أنحائها القباب البيضاء الجميلة.. إنها هي بعينها مدافن الموتى من المسلمين

مررن بها من دقائق قليلة وخلفنها وراءهن.. وهي مدينة تمتد وتعظم على الأيام واختلاف الأجيال التي تمضي ولا ترجع، بينما هي لم تخرج من صمتها العميق وسكونها المطلق إلا لتزداد عظمة واتساعًا حتى أصبحت تضارع مدينة الأحياء.

هنا.. لا يحفل الناس بشيء ولا يخافون أحدًا.. إنهم جميعًا يرقدون متجاورين لا فرق بين غني وفقير ولا عظيم ولا حقير فالكل يرقدون على الرمال الملساء لا يسترهم سوى قطعة من القطن أو الكتان الأبيض، والجميع متجهون بوجوههم صوب الشرق.. صوب بيت الله الحرام ينتظرون في صبر لا ينفد صيحة الحق ونفخة الصور ليهبُّوا ليوم الحساب بين يدي الجبار.

إنهن ما زلن يصعدن في الجبل.. وها هو النهر العظيم يبدو على الأفق الشرقي كوحش هائل داكن اللون قد اختفى ذنبه في أغوار الجنوب، ورأسه في غياهب الشمال، وظهرت على ظهره بقع صغيرة تخدع البصر غير المدقق.. إنها السفن الشراعية التى تنقل المحاصيل إلى أنحاء البلاد..

ولقد ظهر على جانبي النهر القرى الصغيرة القائمة هناك وقد لفها ضباب الصباح في إهابه حتى ليصعب على المرء تمييزها أو تحديد مواقعها.. لكن سرعان ما انتشرت في الشرق الأشعة الذهبية تبعث الدفء والحرارة وتطرد فلول الليل وتبدد عن الكون الضباب، واتضحت معالم

الأشياء فبدا الوادي بألوانه الزاهية وانعسكت أشعة الشمس على صفحة النيل فكانت بريقًا متوهجًا على الأفق وظهرت أشجار النخيل العالية وسط مباني اللبن بالقرى تزينها وتضفي عليها رونقًا جميلًا كما تزهو عليها بطولها وارتفاعها نحو السماء، وكأنها تحس بجلال عظمتها وقوة بنيانها إلى جانب تلك المباني الهزيلة الحقيرة..

والآن يبدو على ضفة النيل الغربية خط رفيع من الأرض المزروعة الخضراء بينما وقفت التلال الليبية كسد منيع يحول دون رمال الصحراء والوادي.

أما في أسفل التلال فقد بدأت تتصاعد سحب الدخان الأسود الكثيف من طواحين الغلال التي تدار بالفحم والبخار لطحن القمح والذرة للناس، وعلى بعد بسيط غرب قناة الإبراهيمية ظهر قطار للبضائع يتهادى نحو الشمال كلعبة من لعب الأطفال يخيل إليك أنها حتمًا ستقف بعد لحظة أو أخرى بعد أن يفرغ وقودها أو الزنبرك.

وعلى الأفق ظهرت قناطر أسيوط بعيونها المئة كمسطرة سوداء مستقيمة وضعت على صفحة الماء الجاري لتتحكم فيه وتصرفه بقدرٍ لصالح الزراعة والفلاحين.

وهكذا كلما صعدت النسوة في الجبل تكشفت لهن أسيوط عن مناظر جديدة وألوان طريفة من الجمال النادر في أنحاء القطر المصري.. وكلما أمعنَّ في التصعيد ازددن مرحًا وبهجة وانطلق

بعضهن يغني في الطريق حتى عمتهن نشوة الطرب جميعًا فأخذن يرددن مجتمعات تلك الأغنية الشعبية الشهيرة:

إرخى الستارة إللي في ريحنا لحسن جيرانا تلمحنا

كانت أمينة بصوتها الرائع وروحها المرحة تقود الجميع في الغناء والكل يحاولن الترديد وراءها والاشتراك معها في الغناء وتقليدها عبثًا.

"الله يحرسكن ويرعاكن يا سيدات المرح والجمال" قالها أعرابى ظهر أمامهن فجأة من وراء إحدى الصخور في قامة مديدة مهيبة، فأجابت الست نفيسة دون أن يبدو عليها أي ارتباك أو أثر لهذه المفاجأة.. بل كان باديًا سبق معرفتها الوثيقة به.. "بارك الله فيك يا شيخ طالب.. هل معك مفاتيح إصطبل عنتر؟" فأجابها حارس المقبرة الفرعونية وهو يغمز لها بمؤخر عينه ويشير إلى أعلى التل ويخرج من جيبه ربطة ضخمة لمجموعة من المفاتيح الكبيرة: بكل تأكيد يا سيدتي.. وها هو ابني فوق القمة يرقب الطريق كطلبك.. إذا سمعت صفيره فافهمي أن هناك زائرًا أو زوارًا ثقلاء غير مرغوب فيهم في طريقهم إليك فتصرفي كما ترين عندئذ..

"ألف شكر لك يا شيخ طالب على خدماتك ومعروفك وكرمك أشكرك وكل من معي يشكرنك ويقدرن جميلك".

بعد هذا الحديث القصير انطلق الجميع يواصلون الصعود خلف الشيخ طالب، الذي أخذ يقود القافلة في الطريق إلى المقبرة الفرعونية "إصطبل عنتر" وبعد قليل انبسط السفح واتجه الجميع إلى اليسار تجاه الناحية الجنوبية للمرتفع، لكنهم كانوا مضطرين إلى القفز فوق حفر كثيرة في هذا المكان، أو تفاديها باللف حولها، وهي بقايا أعمال الحفر والتنقيب التي قامت بها مصلحة الآثار المصرية للبحث عن قبور الفراعين من ملوك وأمراء وكهنة، التي أخفتها الرمال لمئات السنين.. هذه الرمال التي تحملها رياح الخماسين بالأطنان في هبوبها ربيع كل عام من الصحاري إلى الوادي.

وبفضل هذه الرياح الموسمية ظلت هذه المقابر مجهولة وظلت كنوزها سليمة لم تعبث بها أيدي اللصوص، وأصحابها آمنين لم يزعجهم في رقدتهم الأبدية بشر لآلافٍ من السنين.. لكن حضر أخيرًا بعض علماء الآثار للكشف عن هذه المنطقة الهادئة التي احتفظت بكنوزها وبسرها لنفسها مئات السنين.. أتوا هؤلاء المتشككون الحائرون بأفكارهم، المضطربون في حياتهم، ورسموا خطتهم لإزعاج الموتى.

وتوالت الحفائر وظهرت المقابر الواحدة تلو الأخرى كاشفة عن مقدساتها لعين الإنسان الشره الذي أسرع في نهب محتوياتها تاركًا هذه المومياوات المحنطة عارية، أو ممزقة أكفانها على الأرض.

والآن أخذ الجميع يسير في حـذر، يتجنبـون في خطـوهم هـذه الأعضـاء الآدمية المنتشرة عـلى الأرض والتـي أصـابها عبـث الأحيـاء بـأضرار بالغـة بعـد الكشف عنها، فهنا قدم وهناك ساعد وعلى اليمين جمجمة أو جزع إنسان قد نزعت منه أطرافه، كما انتشرت العظام البيضاء العارية في كل مكان، وقد ترى على بعضها مزقًا من أكفانها القديمة في فوضى رهيبة مفزعة، كما لو أن الشقي زيفون قد مر هناك ليعيد مأساة أوزيريس بتمزيق أجداث هؤلاء البؤسـاء إلى آلاف من القطع الصغيرة حتى يستحيل عليهم المثـول في حضرة أخيـه القـاضي الأكبر ليوم البعث.

إن المرء لا يكاد يصدق عينيه.. كيف يتخيـل أن أحفـاد هـؤلاء الفـراعين العظماء الذين دانت لهم الأرض يومًا والـذين كانـت لهـم السـطوة والعـزة في حياتهم.. كيف يتخيل أن أحفـادهم الـذين يعيشـون في القـرن العشريـن هـم الذين مثَّلوا بجثثهم هذا التمثيل.. لكنها الحقيقة المؤلمة[1]..

لقد كان هَمُّ موظفي مصـلحة الآثـار وبعثـات الاستكشـاف مـنحصرًا في جمع الأشياء المعدنية من ذهب وفضة ونحاس أو أحجار كريمة ومجوهرات أو أوراق البردي دون النظر إلى أصحاب هذه الكنوز ودون تفكير في مصير مئـات المومياوات التي وجدت سليمة في هذه المقابر..

(1) صدرت الأوامر بعد صدور هـذه القصـة وبعـد صـيحات الاسـتنكار المتعـددة بجمـع هـذه الرفات ووضعها في مكان أمين.

لقد كان العمال ومعظمهم من الجهلاء الذين لا يمكن لومهم، لا يبالون إذا ما الفأس فصل رأسًا عن جسده أو ذراعًا أو ساقًا.. إنهم لا يعلمون أن مثل هذا الرأس ربما كان لفارس عظيم أو فاتنة ساحرة خَرَّ لجمالها العظماء سجدًا، أو ربما كانت دماء صاحبه تجري في عروق هذا العامل.. لكن من يبصره بهذه الحقائق؟ إنه ليقهقه بصوت عالٍ كلما ارتكب حماقة كهذه.

ومضت القافلة بين هذه المناظر، تسمع منها بين لحظة وأخرى صرخة عابثة أو صيحة رعب وهلع لمرأى جثة ناقصه أو جمجمة ترنو في حزن إلى هؤلاء المجانين الذين اختاروا لنزهتهم مكانًا في مدينة الموتى وبين سكان القبور.

ولم يكن بين النسوة من تعلمت، بل كلهن جاهلات وكل ما حولهن لا يعدو أن يكون "أنتيكة" لا تبعث في نفوسهم أي فكرة أو عاطفة أو انفعال اللهم إلا قشعريرة الخوف لمنظر رهيب.. وحتى هذا الشعور لا يستغرق سوى لحظات قصار يعدن بعدها للهوهن وعبثهن.

لقد اخترن هذه التلال وفضلنها على الحدائق لما تمتاز به في ساعات الصباح الباكر من هواء عليل وأنسام صحية جميلة، والأهم من ذلك هو البعد عن الناس وأعين الرقباء والأصدقاء.. إنهن لم يخبرن أحدًا بوجهتهن سوى الشيخ طالب حارس هذه القبور ليعد لهن مكانًا يقيهن حرارة القيظ إذا ما ارتفعت الشمس في السماء.

"أخيرًا وصلنا.." قالها الشيخ طالب وهو يخطو مشيرًا إلى فتحة عظيمة في سفح التل قد وضع في مدخلها سور من أعمدة الحديد يتوسطه باب كبير من الأعمدة.

لقد وضعت مصلحة الآثار هذه الأبواب والأسوار على المقابر حرصًا على ما فيها من نقوش وكتابات تاريخية لكنها لم تُعنَ بأصحاب القبور بل تركت جثثهم في العراء عرضة للتحلل والضياع وكأنها اكتفت بما حواه المتحف المصري في القاهرة من مومياوات فرعونية متعددة، فتركت هؤلاء للفناء تحت أشعة الشمس المحرقة وعصف رياح الصحراء.

وتقدم الشيخ طالب وفتح باب المقبرة التي بلغت فتحتها من الارتفاع عشرة أمتار تقريبًا ومن العرض خمسة وقد حفرت في الصخور الملساء بعمق عشرين مترًا على الأقل على هيئة بهو كبير زينت جدرانه بالكتابة الفرعونية والأعمدة المصرية القديمة.

وعلى يمين المدخل يرى المرء كتابة بالهيروغليفية تشير إلى حاب زيفا ابن آنت آت الأول الكاهن الأعظم ومن حاشية الملك في عهد الأسرة الثانية عشرة وأن حاب زيفا كان حاكم الإقليم لكن لم يدفن في هذه المقبرة ويقول الأستاذ ريزنر إنه دفن في المديرية الجنوبية.

ونقوش هذه المقبرة على جانب من الأهمية إذ أنها تحوي وصفًا مفصلًا للتقويم العام وحساب الزمن بينما كتب في أربعة وستين خطًّا

بعض طقوس كتاب الموتى وعلى الجانب الآخر خرطوش أوزرتين الأول[1].

وقد نقش على جدار داخلي صور رجال يحملون أشياء مختلفة، بعدهم صورة جانبية ضخمة ثم عدة نساء ينشقن عبير اللوتس كما كانت العادة في الأعياد المصرية القديمة.

أما السقف فكانت نقوشه ملونة ألوانًا تشبه الفن الإغريقي أو يشبهها الفن الإغريقي إذ أنها أقدم في التاريخ من أي فن إغريقي معروف.

وبينما كان الشيخ الطالب يفتح باب المقبرة كان النسوة قد تجمعن عند المدخل وأخذت ضحكاتهن الجذلة ترتفع وأصواتهن تختلط في أحاديثهن المنوعة، بينما كانت الست نفيسة تقترب منهن في خطوات متثاقلة وقد أرهقها التصعيد في الجبل وبدا عليها الإعياء التام وما إن وصلت إلى مكانهن حتى بادرتها أمينة بقولها: "لنسأل الست نفيسة في الموضوع".

نفسية: "ماذا دهاكم؟ وما قصتكم؟"

أمينة: "تقول قدريه إن الرجل يستهويه الجمال الجسماني في المرأة أكثر من رجاحة عقلها أو من حديثها ومواهبها الروحية، بينما

(1) الخرطوش شكل مستطيل يحوي داخله اسم الملك في الكتابات الهيروغليفية.

أقول أنا إن الأمر على العكس من ذلك، لهذا لجأنا لأكبرنا سنًّا، ولـو أنهـا أكثرنـا رشاقة وبهاء، لنسألها في الأمر لتبصرنا بحكمتها.

نفيسة: لا تتشاجرن أيتها الحبيبات وتختلفن في مثل هذه الأقوال الخيالية.. إن الجمال ولا شك هو السلاح الأول لغزو الحصـن، لكنـه سـلاح عقيم لا قيمة له إن لم تحسن الحكمة استعماله ويوجهه العقـل التوجيـه الصائب.. لقد كان فن حواء دائمًـا هـو القـوة الوحيـدة التـي قهـرت هـذا المخلوق الوديع في ظاهره.. لكنه أشد مخلوقات الـلـه ضراوة ووحشـية في حقيقته.. الرجل".

أمينة: "اسمعن اسمعن الحكمة والتجربة أيتها الجاهلات".

كانت أمينة ترفع صوتها بهذه الكلمات في نبرة المنتصر وكانت في الواقع تحس بامتيازها على قريناتها لأنها تعلمت "فـك الخـط" وهـي تقـرأ الجريـدة اليومية مرة أو مرتين في الشهر وهو أمر غير طبيعي فى محيطها.

ولقد رأت الست نفيسة الجاريتين السوداوين تتصببان عرقًا فأمرتهما بوضع أحمالهما من الطعام والفراش ثم أمرتهما بإعـداد الأكـل والشراب وهـي تقـول: "لا شك أن المشي في هذا الجو الجميل والهواء الصحو قد فتح شهيتكن للأكـل فلتـأكلن كما يحلو لكُنَّ بدون أي تكلف أو خشية حساب، أرسلن النفس على سجيتها وكامل حريتها كما لو كنـتن في المنـزل تمامًـا" ثـم التفتـت إلى نبيهـة واسـتأنفت الحـديث:

"ولا سيما أنت أيتها الصغيرة، لا تخافي شيئًا ولا تضطربي ولتتحدثي بكامل حريتك مع صويحباتك في أي موضوع يعجبك وستجدينهن ينصتن لرأيك بكل اعتبار وتقدير ولا يبخلن عليك بنصيحة، وكوني واثقة بأنهن سيكنَّ لك نعم الصديقات والمعين وقت الشدة وأنهن على استعداد للدفاع عنك والقتال دونك يوم تجدين أي صعوبة أو تصادفين أي كارثة".

كانت نبيهة تصغي إلى هذا الكلام وقد علت شفتيها ابتسامة حائرة وشردت نظراتها في الأفق.. إنها لا تدري ماذا تقول ولا ما تفعل.. لقد كانت أشبه بدجاجة صغيرة فصلت عن أمها فهي مترددة بين الاستمتاع بهذه الحرية الباسمة أو العودة إلى أحضان أمها لترعاها وتقودها في الحياة..

حقًّا ما أكثر الحادثات التي زلزلت حياتها في هذه الفترة الأخيرة.. عامان من الرفاهية والخطيئة الكاملة ودنيا الناس الماكرة التي واجهتها بمفردها، فكونت خلالهما شخصيتها وقويت إرادتها وأضحى لها عزيمة جبارة تستغرب من فتاة في مثل سنها لكنها كانت في حيرة.. كيف ساقها القدر إلى بيت الست نفيسة؟ لا شك أن الحادثة الفاجعة التي وقعت في الأسبوع الماضي هي السبب الأول.. ولقد خدعها ذلك المحتال والزنيم بكلماته الخداعة وتصويره الكاذب واستغل ضعفها وحيرتها أثر الحادث.. لكنها كانت مصممة على استرداد حريتها عند أول فرصة تسنح لها.

كانت الأفكار الصاخبة المتضاربة تعصف برأس نبيهة طوال الطريق وبينما كانت الأخريات مشغولات بالأحاديث التافهة والغناء والمرح كانت هي فريسة لحيرة ممضة مؤلمة لا تدري إذا ما أقبلت على هذه الحياة الجديدة التي تقف اليوم على أبوابها.. أتجد شقاء جديدًا أم مستقبلًا سعيدًا؟ إنها تبتسم تفاؤلًا كلما تأملت حولها وتذكرت الحنان الكاذب الذي لقيتها به ست نفيسة لكن أواه.. يجب عليها ان تخفي مشاعرها الآن وتشارك الجمع في مرحهم ولا تفسد عليهن رحلتهن، أما هذا الصراع العنيف الذي يحتدم في نفسها فلن تطلع على سره أحدًا.

عندما فرشت البسط في بهو المقبرة، بإذن كريم من الشيخ طالب، ووضع الطعام والشراب جلس النسوة في حلقة كبيرة بينما انسحب الحارس بعد أن ناولته الست نفيسة قدرًا كبيرًا من الطعام، وكأن الجميع قد خلت قلوبهم من الهموم والأحزان.

وعلى بعد أمتار قليلة منهن رقدت موميتان متجهتين إلى الحائط متدثرتين بأكفان عادية ومن المرجح أنه قد عثر عليهما في مقبرة بسيطة ولعل أصحابها من الأشخاص العاديين في عصرهما فلم يعنَ بأكفانهما العناية الملحوظة والترف المشاهد في أكفان الفراعين ووزرائهم.. على أية حال لم يكن أحد من هذا الجمع المرح ليعنى بوجودهما بل إن هذا الوجود أصبح لا يعني أحدًا سوى مجانين السائحين الأمريكيين أو

غيرهم من الأجانب أو الاختصاصيين المصريين الذين يعكفون على مثل هذه الأكوام المسودة المتحللة بفعل الزمن.

وارتفعت حرارة الصخب والمرح بفعل الشراب الذي أسرفوا في احتسائه في ذلك الصباح الباكر وصاحت زكية في نبرة مخمورة: "إنه لرائع جدًّا.. لكن ينقصنا شيء هام جدًّا.. إنه أهم شيء".

الجميع: "بالله لا تذكريه.. إننا نمقته ولا نريده".

رتيبة: "وإننا لعلى حق في بغضنا وكراهتنا لأنهم كل يوم يأتوننا سكارى وكل يوم يذلون كرامتنا ويمتهنون إنسانيتنا سكارى أو غير سكارى.. وكل يوم يستنزفون من صحتنا ويستحيلون معنا إلى وحوش ضارية لا يعنيها إلا العدوان علينا".

هانم: "أقبح العدوان وأنكره..".

رتيبة: "إنهم وحوش ضارية لا تقل وحشية عن حيوان الغاب المفترس وعدوانهم يقع على إنسانيتنا المهدرة".

هانم: "وحوش حقًّا ولو أن أحدهم يبدو أحيانًا كالحيوان الأليف لكنهم سرعان ما يستأسدون ويطلبون من اللذة ما لا يمكن الاستجابة له ومن المتاع ما يخجل ذكره بله إتيانه.. إلهي ما أتعس هذه الحياة..".

ذهلت نبيهه للمفاجأة التي لم تكن تتوقعها والحقيقة المرة التي تكشفت أمامها.. إن صويحباتها الجديدات رغم كل هذه المظاهر

المحيطة بهن من أصدقاء ومرح ومال وترف ونعيم لسن سعيدات في عملهن كما يدعين.

وعادت رتيبة اللعوب تقول في معاندة مع زكية: "ما أسعد حظنا اليوم.. إننا ننعم بحريتنا التي يقيدها حضورهم".

زكية: "ومع كل فإنكن ضجرات حزينات بغيرهم ولا يقر لكن قرار".

هانم: "إن معنا امرأة لا تسلو عبودية الرجل".

زكية: "إنها عبودية لذيذة.. وما المانع أن أعترف بالحقيقة وأقر بنصيبي في الحياة والواقع".

نفيسة: "لتسكتن.. كفى نباحًا وصياحًا على لا شيء.. وهل هذا وقت الشجار على مثل هذه السخافات.. دعن هذا النقاش الذي يخيف ضيفتنا العزيزة ويجعلها تظنكن جادات في خلافكن لا تخافي أيتها الحبيبة.. يؤسفني أنك لم تتناولي من طعامنا شيئًا وها قد أزعجك شجار هاتيك النسوة.. لكن لا يخدعنك هذا الصياح إنهن مخلصات متحدات عاقلات ذوات صبر في معركتهن مع هذا المجتمع من النفاق والتوحش".

وفي الواقع كانت نبيهة مطرقة في ارتباك ظاهر وهي جالسة إلى جوار الست نفيسة ولم تأكل إلا القليل التافه من الطعام وكأن نفسها قد عافت كل ألوان الطعام التي أمامها..

لقد أحست كأنها دخلت عالمًا جديدًا من عوالم الظلام أو شريدة في صحراء قاحلة لا نهاية لها ولا مبتدا، أو كأنها ضالة في غابة مجهولة بليلٍ وقد وقعت فريسة مخلوقات غريبة شاذة.. فشعرت بحنين ممض إلى حياتها الأولى.. إلى بيتها.. إلى بيئتها.. وتبخرت تلك الكلمات العذبة التي أقنعتها بالأمس بالانضمام إلى هذه الفئة المنبوذة من المجتمع، ولو أنها كانت تحاول أن تعزي نفسها بذكراها حتى تتماسك في مجلسها ولتتحاشى لحظات الضعف التي تراودها في مجلسها حتى لتوشك على الإغماء..

لقد واصل الجميع مجلسهن في مرح ولهو وحماس باستثناء نبيهة التي التمسن لها العذر لحداثة عهدها على مشاركتهن في مزاحهن الفاجر وفكاهتهن المبتذلة.

لقد أذهل نبيهة بل وأرعبها الكمية الهائلة من الخمور التي شربنها رغم أنها من المسكرات القوية، لكنهن كن يشربنها كما يشرب الفرد العادي ماء الشرب ولم يبد عليهن _ما عدا واحدة_ إلا أقل الأثر للخمر.

أخيرًا أديرت عليهن الفاكهة والحلوى ثم صفقت الست نفيسة بيدها طالبة إليهن الصمت ثم قالت: "يا بناتي.. استمعن إليَّ.. بينما تعد الجاريتان القهوة، أرجو أن تتحن الفرصة لزميلتكن الجديدة لتتعلم أسرار ومتع حياتنا اليومية، فعلى كل واحدة منكن أن تصف

لها بصراحة ووضوح وفي غير مواراة أو استكبار أو خجل طريقتها المثلى في اخضاع الرجل وإيقاعه في شراكها حتى تستطيع حبيبتنا الصغيرة أن تختار طريقتها التي تتناسب مع طباعها وميولها.. زودنها بالأسلحة اللازمة لها في مستقبلها وطريقها التي ستشقها للنجاح".

علت الوجوه ابتسامة مشفقة واتجهت الأنظار نحو هذه الصغيرة التي ألقت بها المقادير إلى هذا المكان، وأحس النسوة أن عليهن واجب حمايتها والوقوف إلى جانبها في حالتي السعادة والشقاء.

وصاحت رتيبة: "ما لكن لا تستجبن لنداء الست نفيسة إن لم يكن لديكن مانع فسأبدأ أنا وأشرح لها طريقة فعالة في غواية الشيطان".

الجميع: "هيا وقصي علينا ما عندك".

رتيبة: "حسنًا التفتن إليَّ وأحسني الإصغاء يا نبيهة يا عزيزتي.. هذه طريقة مضمونة النجاح قليلة المتاعب لا سيما مع عملائنا قليلي الخبرة بالمتعة الجنسية ذوي الخيال والأحلام، أو من يسميهم الآدميون بالخياليين ومن السهل اكتشاف أمرهم.. وما عليك مع مثل هذا الشخص إلا أن ترسلي نظراتك المنكسرة الحزينة إلى الأفق البعيد، أو تنظري ساهمة إلى لا شيء كأنك لا تهتمين بأمره ثم تتحركي في جلستك فتكشفي عن جانب من جمالك المختفي تحت المشد، مع إبقاء الساقين ملتصقين حتى لا تتيجى له إلا أقل ما يمكن من الإشباع وفي نفس الوقت تثيرين فيه الرغبة الملحة في البحث عمَّا

وراء ذلك.. بعد هذا ابتسامة ضعيفة حزينة وبضع كلمات رقيقة عن مزايا الفريسة المجهولة للناس ثم مزحة مهذبة فتكسبين المعركة.

كان الجميع يصغين بانتباه تام ولم تبدُ من إحداهن أي رغبة في المقاطعة ما شجع رتيبة على الاسترسال: يأتي بعد ذلك الغزل وفن صناعتنا، وهي من الأمور التي تحتاج إلى مهارة خاصة ومران.. وليكن معلومًا لديك أنه من المحظور أن تسرفي من أول الأمر ولا من أول يوم في إعطاء أو تقبل القبل أو الاستسلام الكلي لوحشية الرجل وجشعه، وسيعظم نجاحك كلما غادر الرجل غرفتك ثم تذكر وهو على درج البيت أنه لم ينل كل ما كان يرجو من معاملة ممتازة أو استلطاف كبير.. إن هذا ولا شك سيدفعه إلى عودة قريبة مؤكدة.. فكوني كيِّسة عاقلة في اختلاق الأعذار _والمرأة قديرة ولا تخلو جعبتها من أعذار كثيرة_ لتتهربي من الاستجابة لكل حماقاته ولا يمنع هذا من استجابتك لبعض نزواته العابثة وإشباع بعض غروره، الذي يضع بين يديك سلاحًا فعالًا لاكتسابه لأنه لا يوجد آدمي يخلو من الغرور.

وما انتهت رتيبة من كلامها حتى علت صيحات الاستحسان والإعجاب وصفق الزميلات لها كثيرًا، ثم انبرت قدرية لتقول: "يبدو في اعتقادي أن هناك فنًّا آخر يتيح لنا النصر في معركة الحب.. ألبسة الحرير الغالية والروائح والمساحيق الفاخرة يمكن استعمالها

كأحسن ذخيرة حربية لدى النساء.. والألوان المنسجمة في ضوء النهار والملابس البراقة المثيرة في الليل.. تفصيل الملابس عند الخياطة الماهرة التي تستطيع إبراز كل مفاتن الجسد وخطوط جماله.. ثم ملابس داخلية مزركشة ناعمة الملمس ولا تنسي بعض الحلي والجواهر حتى تبدين كالأغنياء.. كل هذه الأشياء مضافة إلى قبلة الحبيب كفيلة بسحر أشد ضحاياك ضراوة وخبثًا ولا سيما إذا كان من أغنياء الريف.

صفق الجميع استحسانًا لزميلتهن المرحة عندما انتهت من هذا الحديث، وكان الدور بعد ذلك لأمينة التي قالت: "يا صديقاتي ليس لديَّ طرق مختلفة للتفضيل بينها، لكن من كرم الله عليَّ ما خصني به من ميزات لاسترقاق الرجال، فأنا أحفظ العشرات من أغاني الحب والخمر.. أغاني العاطفة والحماس.. المقطوعات المرحة والحزينة.. كل ما غنته بلابل مصر الشهيرات.. وإذا وجد الدف والصاجات فأنا راقصة لا يشق لها غبار.. تسحر أتباعها بما تعرض من فن، يعاونني عليه أطراف لا تعرف التعب وخصر جميل مطيع وبطن غير ممتلئ لا يخذلني، وظهر لين كالمطاط ألعب به كيف أشاء.. أما نهداي البارزان فقطعتان من المرمر تفيضان بالحياة.. إنني مرفأ جميل يقصده كل ظامىء للجمال كما تصوره أشعار الشعراء وصور المصورين، سواء كان هذا الجمال وطنيًّا أو أجنبيًّا أو أنغامًا موسيقية أو أوزانًا شعرية.. إنني كفيلة والحمد لله بإشباعه.

رتيبة: "لكن هذه الطريقة الجميلة ليست في مقدور كل النساء".

نفيسة: "على كل حال يجب أن نقدر أمينة وقولها المخلص الذي كشفت به عن صفحة أخرى من فنون حواء وغوايتها.

هانم: "تعلمن أيتها الأخوات أنني أكبركن سنًّا.. لقد جاوزت الخامسة والثلاثين والشباب قليلًا ما يلتفت إليَّ لأنهم يفضلون الصغيرات من ذوات الشباب الغض والفن الجميل الذي استمعتن إلى ألوانه.. لكن ثقن أن من يقدرونني لا يسلون عشرتي ولا يرضون هجري أبدًا.. إن لديَّ سرًّا لا تعرفنه جميعًا.. إنني خبيرة الحب المجربة التي عركت معاركه وخبرت أسراره وهذه أسلحة نجاحي المعروف.. إنني لا أبارى في مجالس السمر والشراب ولا في مجالي الغزل وأسرار الفتنة.. ولي مقدرة على الاحتفاظ بأصدقائي المفضلين في مجلسي في أقصى حالات النشوة والسرور والانسجام.. إن الرجال لا يستسلمون لأسلحتي فحسب.. بل إني لا أترك منهم إلا حطامًا ذليلًا.. ورغم ذلك فلا أتيح للرجل فرصة الارتواء والشبع.. بل هو يعود إليَّ أشد إخلاصًا في حبي وفي شوق متجدد لمجلسي وتوقٍ لقبلاتي الملتهبة يبلغ به حد الجنون.

أمينة: "هذا حق.. هذا عظيم وإني لأعترف بأن عملاء هانم أكثر بقاءً من عملائي.

رتيبة: "وأنهم من الممتازين وأحسن من يتردد على منزلنا من الشباب.

نفيسة: "وأنت يا زكية ما الطريقة التي تعتقدينها أفعل في النفوس وأربح لك؟

زكية: "أما بالنسبة إليَّ يا ست نفيسة فلا حاجة بي إلى الفن أو إلى دراسة أساليب الحب فأول التقاء بين النظرات يحدد مستقبل العلاقة بين الطرفين.. إن النظرة الأولى هي العامل الأساسي في وضع بذور هذه العلاقة النامية والميل القلبي.. أما الملاطفة والملابس والروائح العطرية والحلي والجواهر والأغاني وفنون الغزل.. كل ذلك لا أثر له على ميل القلب.. إذا لم يستجب لأليفه من النظرة الأولى.. عبثًا ما نحاوله إذا لم تأتلف الأرواح وتنسجم النفوس.

أمينة: "حقًّا.. إن العيون هي نبع الحب.. أو قبره".

رتيبة: "إذن فلنشرب نخب العيون الجميلة، وتضاحك الجميع وهن يقرعن الكؤوس ويفرغنها في أجوافهن، وما لبث بعد ذلك إلا قليلًا حتى اختفت كل علامات التعقل، وكلما أمعنَّ في شرب الخمر زال التحفظ وذهبت البقية الباقية من الحياء فأخذن في تبادل الشتائم والنكات الفاجرة والدغدغة المثيرة والغزل الفاضح المصحوب بحركات اليد والوجه والجسم، حتى الست نفيسة التي حاولت الاحتفاظ باتزانها والظهور بمظهر العاقلة المسيطرة على القافلة أخذت تشترك في هذا العبث المجنون والمجون الفاضح، وفجأة انطلقت أمينة تغني بحرارة عاطفية عجيبة إحدى الأغاني المشهورة

فخيم الصمت لحظة ثم أخذ الجميع يرددن خلفها بعض فقرات الأغنية في نشوة مخمورة:

لك ناس يا ليل بيشكولك مواجعهم

باللـه يا ليل ما تبقاش.. تواجعهم

أجريت يا ليل على الخدين مواجعهم

من الخوف يا ليل ليطول المدى معهم

وما إن انتهت من تلك الأغنية حتى أخذن في التصفيق والتهريج من جديد، وطلبن منها أن تعاود الغناء وشرعت فعلًا تغني.

لكن على حين بغتة انفجرت زكية باكية في نشيج متقطع وتنهد عميق موجع فوجم الجميع في دهشة، وأُرْتِجَ على أمينة فتوقفت عن الغناء، بينما أخذت زكية تقول من بين أنفاسها المتقطعة "أحضروا لي محسن.. أحضروا لي محسن" فتقدمت منها أمينة تلاطفها وتربت على ظهرها وهي تقول.. "اهدئي يا عزيزتي.. ليس من المعقول أن يأتي محسن إلى هذا المكان الآن.. عندما نهبط إلى المدينة ستجدينه فورًا" لكن زكية عادت تقول: "أريده حالًا.. أريده حالًا وهل سأعيش حتى أصل إلى البلد"، واستغربت في بكائها بحرقة وجرت دموعها غزارًا على وجنتيها وهي تبكي كطفل صغير بين تعجب زميلاتها وحيرتهن في تفسير ما حدث لها وجعلها تصر على هذا الطلب العجيب.

خيم الحزن على الجميع لهذه المفاجأة بينما ذهبت ست نفيسة لتنام على أثر صداع في رأسها بعد هذا القدر الكبير من الخمر الذي غيبته في جوفها وتلتها قدرية وهانم فاستلقتا في أحد أركان المكان بينما أسرعت رتيبة إلى معونة أمينة في تهدئة ثورة زكية.

أما نبيهة فقد رفضت أن تشرب الخمر وقاومت إلحاحهن المستمر لأنها كانت تعاف مذاقها ولم يشجعها ما رأت على الإقدام على ذلك.

ولقد بقيت كما هي منطوية على نفسها، نادرًا حديثها، ولو أنها حاولت أن تتظاهر بالاندماج في محيطها الجديد وحياتها المستقبلة.

لم تفلح كلمات الست نفيسة ولا رقتها المصطنعة وتوددها إليها واصطناعها الرفق معها في التخفيف من أحزان فؤادها المكلوم، بل لقد زادت ثورتها النفسية احتدامًا حتى لتوشك أعصابها أن تنفجر منذ أن سمعت من الست نفيسة وهم في الطريق إلى الجبل عن ضرورات هذه الحياة الجديدة ووجوب استصدار "رخصة" من البوليس لمزاولة عملها.. رخصة؟! إن هذه الفكرة كادت أن تذهب بلبها؟! هل قدر لها أن تعتبر رسميًّا إحدى البغايا؟! وأن تحمل أمام الحكومة والناس لقب بغي؟! وهل أصبح لزامًا عليها أن تستجيب لنزعات كل طارق قذر مجهول؟! وأن تسلم جسدها لأداء هذه الوظيفة الوضيعة البغيضة لكل زائر؟ هل قدر لها أن تسهر الليل بطوله وأن تتعاطى المخدر

والخمر ليذوي شبابها وبهجتها سريعًا؟! هل عليها مـن الآن أن تشـقى في كـل لحظة من نهار أو ليل بلقـاء وحـوش الآدميـين وأن تلقـاهم وتـتركهم عرايـا في أوضاع كريهة منفرة؟! أهكذا ينتهي بها الأمر إلى بيع جسدها كل يوم في المزاد لكـل صـاحب مـال يـدفع الـثمن دون تمييـز أو حـق في الاختيـار أو حتـى في الاعتراض؟!

انها لا تكاد تذكر كيف حدث هذا.. إنما أفاقت من ذهولها لتجد نفسها فريسة سهلة هشة بين يدي ست نفيسة.. إن صور الأحداث الأخيرة مـا زالـت تختلط في مخيلتها، لكنهـا تـذكر ذلـك الصـباح.. في منـزل الحكمـدار.. الصـباح التالي لانتحاره.. لقد كانت تقابل بنظرات الاحتقار من كل من في المنزل.. لكـن أقساها نظرات أرملته.. لم يشفع للفتاة ما بدا عليها من تفجع وحزن.

لقد اختفت زوجة الحكمـدار عـن نظرهـا برهـة ثـم عـادت تسـتدعي المراسلة وتتحدث إليه على انفراد، ثم أعطته نقـودًا ليعـود بنبيهـة إلى قريتهـا ويسلمها لأهلها.. وسمعت نبيهة هذا الأمر في ذهول وحزن وفكرت في التوسل إلى سيدتها أن تنقذها من القرية لكنها عدلت عن هذه الفكرة رغم أن القرية كان معناها الإلقاء بها ثانية بين يدي الوحش الآدمي المعدوم الضمير والكرامة الذي تسبب لها في هـذا المصـير المشـئوم والغربـة الأليمـة بعيـدًا عـن الأهـل والأحباب.. لكنها في نفس الوقت كانت موقنة بأن الأرملة لـن تغفـر لهـا وقـد تنتقم منها إذا أبقتها لديها وتذيقها ألوان الذل والهوان.

كانت لهجة الأمر قاطعة جعلت نبيهة تحس باليأس والاستخذاء فلم تتردد طويلًا في التنفيذ والطاعة وتبعت الجندي "المراسلة" إلى جزائها المقدور.

وإنها لتذكر الآن أنها بعد مسير خطوات قليلة من المنزل شعرت بدوار شديد ثم أصابها الإغماء ولمَّا أفاقت طلبت من الجندي أن يستريحا قليلًا داخل حديقة عامة في الطريق إلى المحطة وفي الحديقة دار بينهما حديث طويل كانت تقطعه ببكائها المتواصل وشهقاتها المتقطعة ودموعها الغزار التي لم تنقطع لحظة، ولقد توسلت إليه واستحلفته بكل عزيز لديه ألا يكون صارمًا في تنفيذ أوامر الأرملة الحاقدة وأن يبقي عليها ولا يعود بها إلى القرية لأن ذلك معناه هلاكها وتعاستها الأبدية.

أخيرًا رق قلب الجندي لحالها ومر بخاطره بيت الست نفيسة، فعرض عليها الالتجاء إليها وزين لها الحياة هناك أبدع تزيين وصورها لها كالفردوس المفقود الذي تبحث عنه في جحيم هذا الوجود، فرضيت بذلك على اعتبار أنه ملجأ ولو مؤقت خير من مصيرها المحتوم فى سعير قريتها.

مرت كل هذه الصور بمخيلة نبيهة وهي جالسة بين صويحباتها فأبت أن تشاركهن الخمر لا إعراضًا عمَّا هن فيه من مرح واستسلامًا لأحزانها وآلامها، بل لإدراكها عمق الهاوية التي هي على وشك

التردي فيها ورغبتها في التخلص منها بأي ثمن، ولعلمها أن أقل تأخير أو تردد يعني الطامة الكبرى التي لا يمكن النجاة من نتائجها والوصمة التي لا تمحى، فلا بد من التصميم والتنفيذ بذهن ماضٍ وإرادة قاطعة سريعة.. أما الخمر فقد يجعل الخوف والتردد يؤخرها وربما أدى بها إلى النوم الذي يضيع الفرصة منها..

أخيرًا قررت أن تعمل شيئًا قبل أن تفيق المخمورات أو تصحوا النائمات.. لأنها إذا انتظرت فلن تستطيع شيئًا.

رأت رتيبة وأمينة على بعد خطوات منها منشغلتين في تهدئة زكية والباقيات نيام فنهضت متصنعة عدم الاكتراث واتجهت إلى الخارج كما لو كانت تريد أن تتنسم بعض الأنسام الصحوة فوجدت الجاريتين منهمكتين في تنظيف الأواني، والشيخ طالب قد ارتفع شخيره وهو يغط في سبات عميق خلف إحدى الصخور، فغطت نبيهة نفسها بالملاءة التي كانت تحملها في يدها وانطلقت تعدو كالسهم تجاه الجنوب وبعد فترة قصيرة كانت قد اختفت تمامًا بين الصخور، ولمَّا ابتعدت عن إصطبل عنتر بمسافة كبيرة أخذت تنزل التل بسرعة بعد أن خلعت حذاءها غير مبالية بما يصيبها في قدميها ولا في يدها من جراح بل كان همها الفرار من تلك العصبة الغاوية..

لم تفكر في مصيرها بعد هذه اللحظة، بل تركت أمرها بين يدي خالقها يوجهها كيف يشاء وأخذت تعدو تارة وتقفز من صخرة إلى

ثانية تارة أخرى، كعنزة برية مطاردة وقد تملكها الرعب فلم تشعر بالدماء التي تنزف من أصابع قدمها اليمنى بل كلما مرت بخاطرها فكرة اللحاق بها كانت تزيد من سرعتها ويتصبب العرق البارد على جبينها ووجنتيها، حتى بلغت مقابر المسلمين بعد ربع ساعة تقريبًا من العدو المتصل وانثنت إلى أول طرقات المقابر قبل أن يلمحها أحد من قواد عربات الركوب الواقفة في انتظار الست نفيسة ورهطها.

كان اليوم يوم جمعة وكانت المقابر غاصة بالناس لا سيما النساء اللائي يذهبن في ذلك اليوم لتوزيع أنواع الخبز والمأكولات على الفقراء وللسائلين، وليأتين بأحد القراء المنتشرين بين القبور ليقرأ ما تيسر من القرآن ويهب ثوابه لأرواح موتاهن.

شعرت نبيهة بشيء من الاطمئنان عندما وجدت نفسها مرة أخرى بين الناس فسارت على مهل حتى هدأت أنفاسها وتفكيرها، لكن سرعان ما انهمرت الدموع من عينيها عندما مرت بخاطرها ذكرى قبر كالقبور التي حولها.. لكن قبر بعيد في قريتها النائية.. لقد مضى عليه عامان لم يجلس قارئ إليه خلالهما ليقرأ القرآن الذي يرسل الرحمة والطمأنينة إلى روح صاحبته.. إنه قبر أمها المهجور والتي حرمت من حنانها وعطفها وحمايتها.. وازدادت دموعها انهمارًا وبكاؤها حرارة عندما ذكرت ما هي فيه من حيرة وهوان وحالتها الموئسة التي لا تدري إلام منتاها..

واشتدت حرارة الجو بعد أن ارتفعت الشمس في كبد السماء وأخذ منها التعب كل مأخذ وشعرت بنفسها تنهار دفعة واحدة بعد هذا المجهود المضني مع هذه الآمال الذاوية والموت المحيط بها في كل مكان، فلجأت إلى صخرة نائية إلى جوار بعض القبور لتستريح قليلًا.

"الله أكبر الله أكبر.." ترددت في سمعها فانتبهت إلى صوت مؤذن يصل إلى سمعها من بعد سحيق فأرهفت السمع إلى هذا النداء.

وعاد الصوت يردد "أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن محمدًا رسول الله.." لقد كان الأذان لصلاة الظهر وقد فرض على المسلم عند انتصاف النهار أن يتوقف قليلًا ليذكر ربه وخالقه بضع دقائق تصل بينه وبين أسباب السماء وترتفع به قليلًا عن حمأة المادية وتتيح له الفرصة للفكر والتأمل في الكون ومدبر الكون ومقسم الأقدار.

ومضت فترة من الوقت ونبيهة شاردة في تيه من أفكارها حتى نسيت العالم حولها، لكنها انتبهت مذعورة على صوت امرأة يقول لها: "أسعد الله صباحك" فانتفضت واقفة وقد علا وجيب قلبها وتملكها الفزع، لكنها سرعان ما استعادت هدوءها عندما تحققت أن القادمة ليست من مطارديها بل غريبة عنها وعنهم، ردت التحية بعد أن استعادت أنفاسها ثم عاودها الذهول وهي تنظر إلى المرأة الواقفة أمامها كما كانت المرأة تتفحصها بنظراتها.

كانت القادمة في أوائل العقد الخامس من عمرها لكنها محتفظة بشبابها وحيويتها ذات قدٍّ جميل متسق وقد علت وجهها ابتسامة مشفقة تسخر من الحياة وأحداثها.. كانت من النساء اللائي لا تزعزعهن الحادثات ولا غدر الزمن بل يتقبلن ما قدر عليهن بالرضا والتسليم.

لقد عادت تسأل نبيهة: "ألك أحد مدفون في هذه الناحية يا ابنتى؟".

"لا.. إنني غريبة".

"لكن كيف عرفت سبيلك في هذه المقابر يا بنتي.. إنه لا يوجد هنا ما يسر له كبير ولا صغير".

لم يضايق السؤال نبيهة بل شعرت بالائتناس بالقادمة ورغبت في التحدث إليها حتى تذهب عنها الوحشة وما تحسه من وحدة في هذا العالم.. وغربة.. غربة قاسية تحز في قلبها.. لقد رأت الحزن يرتسم على وجه هذه المرأة وأحست أنهما متآلفتان روحًا، متفاهمتان في هذه الحياة فعلًا، قد جمع بينهما الأسى وقرب ما بين قلبيهما..

أجابت نبيهة: "إنه القدر.. والقدر وحده الذي ساقني إلى هذا المكان.. ومشيئة الله" ثم غلبتها عواطفها فسالت الدموع تلهب خديها ونفسها فاقتربت منها المرأة تلاطفها وتواسيها بكلماتها الحنون: "اهدئي يا بنتي فكلنا في الحياة سواء.. هوني عليكِ وكفاكِ ما أنت

فيه من غربة.. خبريني عن سر بكائك المتصل وهذا الحزن الـذي كسـا وجهـك الجميل؟ لا تخافي.. اطمئني إليَّ فإني مشفقة عليك، وعينـاك الجميلتـان تنبئـان عن صفاء نفسك وطيبة قلبك ولذا أحببت حديثك وخطبـت صـداقتك فلعلنـا نتعاون سويًا على الحياة.. خبريني".

رفعت نبيهة بصرها إليها في حيرة وتساؤل، لكن الحزن البادي على وجه المرأة والمشاركة الوجدانيـة البادية في نـبرات صـوتها أعـادت إليهـا الطمأنينـة وجعلتها تثق في محدثتها حتى أنها عزمت على مصارحتها بخبيئة نفسها، علها تجد عندها عونًا أو رجاءً، فقالت:

"إن ما ألقاه من آلام مقدر عـليَّ في الأزل.. لقـد وجـدت نـفسي في هـذا المكان الذي أجهله بمحض الصدفة ولعلها الأقدار ساقتني.. إنني اليوم بلا نصير ولا مأوى ولقد خرجت أبحث عن مكان يؤويني."

"لكن لماذا اخترت هذا المكان؟ وماذا كانت بغيتك؟".

"لقد كنت حتى الأمس خادمة في بيت القائمقام حسن بك".

"حكمدار البوليس الذي انتحر؟!".

"نعم".

"وبعد ذلك؟".

"بعـد أن مـات الحكمـدار وقعـت تحـت اضـطهاد فظيـع ولـولا لطف اللـه بـل وبمعجـزة منـه مـا كانـت نجـاتي مـن هـلاك محقـق.. أرجـو

من اللـه أن أكون قد نجوت.. لقد كنت قبل حضورك أفكر وأنا جالسة على هذه الصخرة في جدوى حياتي وهل تساوي أن أبقى في عذاب وضيق متصلين أم من الأفضل أن أحذو حذو الحكمدار وأظفر بالراحة الأبدية في حفرة كهذه..". أثار حديث نبيهة عطف المرأة واستدر شفقتها ببساطته وصراحته حتى أوشكت الدموع أن تطفر من عينها وساد الصمت بينهما برهة، عادت المرأة بعدها تقول: "يا أختاه ويا وصيفتي في الأحزان.." إنك بحاجة إلى من يأسو جراحك ويأخذ بيدك ويرشدك سواء السبيل وإلى من يعولك.. وليس لديَّ مال أفيضه عليكِ بل إني أعمل طوال اليوم وأشقى مقابل قروش قليلة، وفي المساء أعود إلى حجرتي الحقيرة التي كان يشاطرني إياها حتى الشهر الماضي طفلي الحبيب، لكن اللـه القدير قد قدر في الأزل أن يكرمه بالجنة في طفولته ولقد دفنت جسده الطاهر في هذه المقبرة المتواضعة التي أمامك حتى ألتقي به يوم المعاد.. فإذا قبلتِ وأرجو أن تقبلي دعوتي إياك لتشاطريني هذه الحجرة، ولعل اللـه يأتي لك بفرج قريب.. إن مخدومي من أعيان البلدة ولعله إذا سمع قصتك استطاع مساعدتك، ومن يدري لعل اللـه أراد بكِ خيرًا ولشبابك أن يزدهر مرة أخرى..".

كانت نبيهة تصغي إلى المرأة في انتباه تام وقد عاودها الأمل في الخير وشعرت بأعباء قلبها الثقال تنجاب عنه شيئًا فشيئًا، حتى خيل إليها أنها تخلصت من آلامها كلها ففاضت عيناها بدموع الفرح

وارتسمت على وجهها آيات الشكر وعرفان الجميل، ولم يكن أمامها متسع للتردد أو التفكير الطويل بل كان عليها البت السريع فقالت: "أشكرك يا أختاه من أعماق قلبي الذي تفتح لك كما لو كنا صديقتين حميمتين منذ زمن بعيد.. إن نظراتك تنبئني عن صدق ما تقولين وروحي أصبحت طوع يمينك وفداء لمعروفك فخذيني معك واحمي ضعفي".

وألقت نبيهة بنفسها بين أحضان المرأة التي بادلتها العناق بحرارة وإخلاص ثم جلستا تتجاذبان أطراف الحديث قليلًا ثم انصرفتا إلى المدينة متخذتين طريقًا موحشة بين الحقول حتى يتجنبا مفاجأة ست نفيسة ورهطها واحتمال لقائها.

وكانت دقائق الطريق فرصة أخرى لتوثيق عرى الصداقة الجديدة بين هذين القلبين البائسين فاسترسلتا في أحاديثهما وعلمت نبيهة أن صاحبتها تدعى فاطمة ولم ترَ هي بأسًا من أن تقص على فاطمة كل تفاصيل حياتها السابقة حتى مغامرتها الجديدة مع الست نفيسة وصاحباتها.. في صدق وإخلاص تمتاز به الطبقات الدنيا في علاقتها السريعة السهلة، لِما تختص به طبيعتها من بساطة وسذاجة وبعدٍ عن التعقيد الذي يزداد كلما ازدادت النفس إيغالًا في المدنية والتثقيف.

النجاة

أسـيوط وتـدعى عاصـمة الصـعيد تكـاد أن تكـون مـدينتين مختلفتـين تفصلهما السكة الحديدية.. فأنت إذا ما تركت مدافن المسلمين المتسعة والتي تواصل امتدادها شمالًا على حافة الصحراء الليبية، مررت خـلال شريـط ضـيق مـن الأراضي الزراعيـة تفصـل بينهـا وبـين أول مبـاني المدينـة القديمـة، التـي تستقبلك بشوارعها الضيقة وأسـواقها القائمـة كثـيرة الضوضـاء والحركـة، وقـد غصـت بالحوانيـت الصـغيرة الضـيقة حيـث تصـنع أدوات الزينـة مـن العـاج والخشب المطعم بالأبنوس والعاج، كما ترى الأنوال اليدوية لصـناعة الأقمشـة المختلفة لا تفتر عن الحركة والعمل، إلى جوار كل ذلك تجـد حوانيـت البقـول التي تبيع للناس إلى جانب الجبن والزيت والنقل توابـل الهنـد وجـاوة وفـارس وعطور القاهرة النفاذة، كـما تـرى صـناع السرج يفتنـون في إبـداعها وإضـفاء النقوش الفنية على جلودها وحواشيها حتى ليبدو السرج قطعة فنية فرعونية أو عربية، كما تلقى بائعي الزجاج والخزف والفخار وأصناف الآنيـة النحاسـية إلى جوار المطاعم الصغيرة والمقاهي البلدية التـي لا تتعـدى مسـاحة الواحـدة منها بضعة أمتار قليلة مربعة.

ومعظم هذه الشوارع غير مرصوف تثير عربات النقل وحركة الناس الأتربة الخائفة في جوها، وإذا ما قام الأهلون برشها بالماء وأسرفوا فيه حتى يلطفوا من حرارة الجو استحال الطريق موحلًا زلجًا، بينما إذا تقدمت شرقًا وعبرت خط السكة الحديدية واتجهت صوب النيل لقيت المباني الحديثة والشوارع المتسعة ذات الأشجار الباسقة والميادين الفسيحة، ورأيت مدينة ضخمة تمتد إلى كل اتجاه وتزهو بقصورها الجميلة ذات الحدائق الغناء والأسوار البديعة من أشجار الياسمين أو غيره من الزهور، وإذا بلغت شاطئ النيل أذهلتك القصور الفخمة ذات الهندسة البطلمية مما يعزُّ له المثيل في القاهرة أو الإسكندرية والتي يقال إنه قد أحضر لإقامتها الفنانون من الخارج.

ومن أسيوط تتفرع قناة الإبراهيمية من النيل، وهي ممتدة حتى الواسطى بالقرب من القاهرة فتروي المساحات الشاسعة من الوادي.

أما قناطر أسيوط فهي حق من روائع المنشآت الهندسية بوادي النيل ويبلغ طولها ثمانمائة وخمسة عشر مترًا وقد تكلفت أكثر من مليوني جنيه.

وبين الإبراهيمية وقناطر أسيوط حدائق متسعة انتشرت فيها الأشجار الضخمة التي تغمر ظلالها المكان وتتخللها أحواض الزهور الجميلة حتى لتضفي على البقعة جوًّا شاعريًّا رائعًا وتتيح لأهالي المدينة الفرصة للاستمتاع بجمال الطبيعة الكريمة والنيل العظيم.

وقد أقيم على شاطئ الإبراهيمية نادي البلدية وهو نادٍ حديث العهد فخم المبنى لا يؤمه إلا كبار موظفي البلدة وأعيانها، أما شرقي قناطر أسيوط فيقع نادي إسبورتنج الكبير بأراضيه الفسيحة وملاعبه الرحبة التي يؤمها هواة الرياضة من كبار أثرياء المدينة والجاليات الأجنبية بها.

ويوجد بالمدينة ثلاثة مستشفيات ومحكمة للاستئناف العالي ومدرسة ثانوية أميرية والبعثة الأمريكية بمدارسها ومبانيها الجميلة، حتى كأنها حي قائم بذاته بحدائقه وساحاته وملاعبه كما توجد بعثة الفرنسيسكان بكنيستها ومدارسها وكذلك متحف للآثار يملكه أحد وجهاء[1] المدينة.

وتقوم شركة مياه القاهرة بعملية مياه الشرب بالمدينة وهي شركة فرنسية[2] كما يقوم المجلس البلدي بتزويد المدينة بالتيار الكهربائي.

وأسيوط بلدة تاريخية قديمة وفي الحفريات الأثرية الفرعونية وجد اسمها منقوشًا في غير مقبرة، وكانت تسمى "سيوط" وقد سميت في عهد البطالسة ليكوبوليس، وتعني بالإغريقية مدينة "الذئب" وكان الذئب من معبوداتهم وظل هذا هو اسمها طوال الحكم الروماني، وكانت النقود الذهبية تضرب في ذلك العهد وعليها نقش المعبود

(1) يوجد الآن بالمدينة عدد كبير من المدارس الأميرية والمستشفيات الحكومية والأهلية.
(2) انتقل امتياز الشركة إلى مجلس بلدي أسيوط فيما بعد.

"الذئب" وتحته نقش باليونانية كلمة "ليكو" ولمَّا تكاثر عدد القبط كلما تكاثرت هجرتهم إلى المدينة أعادوا لها اسمها القديم مع تحريف بسيط وهو الاسم المعروفة به إلى اليوم.

كما اشتهرت أسيوط بمولد فيلسوف الأفلاطونية الحديثة المدعو أفلاطونس وقد عاش من 270 إلى 205 قبل الميلاد وكذلك اشتهرت _حتى نهاية القرن التاسع عشر_ بحماماتها التركية التي لم يبقَ منها الآن سوى أرضياتها الرخامية وبعض قواعد من الجرانيت ذات أشكال مختلفة تنم على أنها من مخلفات المعابد الأثرية القديمة، ورغم ذلك فهي ما زالت تجتذب الطبقات الدنيا وأصحاب الفضول من السائحين.

وأغلب سكان المدينة من طبقة الزراع المتوسطين، كما يوجد بها طبقة من كبار الملاك الذين يملكون الضياع الواسعة في أنحاء القطر المصري حتى أن أهل المدينة يفخرون دائمًا بأن مديريتهم أغنى مديرية في الدولة، ويتحكم الأقباط في الجانب الأعظم من تجارة وزراعة المدينة، وهم منافسون أكفاء للمهاجرين الأجانب، الذين لا يستطيعون الصمود أمام قوة منافسيهم، وسرعان ما يرحلون عن المدينة وذلك هو السبب الرئيسي في أن الجاليات الأجنبية قليلة العدد جدًّا بالمدينة إذا استثنينا الإرساليات الدينية.

وإن قصة اليهودي الذي زار أسيوط مشهورة جدًّا ولا ينسى

الأسيوطيون أن يتندروا بها أمام زوار مدينتهم، وهي تتلخص في أنـه ذات يـوم من أيام الربيع لجأ يهودي من التجار المتجولين إلى أسوار المدينة ومعه حـماره الذي يحمل عليه تجارته الصغيرة.

وقد خلب لبه منظر المدينة واتساعها وعظمتها، فحسَب أن بإمكانـه أن يثرى لو أنه استقر بها كما فعل إخوان له من قبـل ممـن أصـبحوا مـن أغنيـاء تجار القاهرة، ولكن كرجل غريب عن المنطقـة أحـب قبـل أن يغـامر فيهـا أن يجمع المعلومات الكافية عنهـا فسـار في الطريـق حتـى وجـد بعـض الغلـمان يلعبون بكرة فاقترب من أحدهم قـائلًا: سـعدت صـباحًا.. مـا أبـدع مـدينتكم العظيمة وما أروع منظرها!

"إننا لا نقول عنها غير ذلك".

"خبرني يا بني هل يوجد في مدينتكم العظيمة كثيرون من الأجانب؟".

"أقل عدد ممكن أن تتصوره".

قالها الغلام وهو يرمق اليهودي وعلى فمه ابتسامة سـاخرة، بيـنما كـان الرجل يبتسم فرحًا بقـرب تحقيـق حلمـه بعـد طـول تجوالـه في الـبلاد.. وقـد حسب أنه أمن المنافسة وأنه عمًّا قريب سـيعود إلى القـاهرة ليغزوهـا كأحـد أعلام التجارة.

وعاد يستأنف حديثه مع الغلام: "هـل تكـاليف الحيـاة مرتفعـة هنـا؟"

فنظر إليه الشقي الصغير في استنكار كأنه لم يفهم ما يرمي إليه الرجل من سؤال، فعاد اليهودي يقول له: "بكم يمكنني أن أتناول غدائي في هذه المدينة؟".

"كم..؟! بربع قرش لا غير يمكنك أن تأكل أكلة شهية، بما في ذلك الفاكهة وكذلك غذاء حيوانك.

ذهل اليهودي للرد وفغر فاه دهشًا.. لا بد أن هذه إحدى العجائب.. إن هذا لا يعقل في أي مكان آخر.. أم ترى الغلام يسخر بي..

وعاد اليهودي يسأل في ارتياب: "كيف يمكن أيها الفتى الكريم؟".

"أصغِ إليَّ أيها الشيخ الفاضل.. بعشر بارات يمكنك من المدينة أن تشتري بطيخة كبيرة يزيد وزنها على خمسة أرطال فتأكل منها اللحم وتعطي حمارك القشر فيشبعه، أما اللب فتحفظ به لتتسلى في أوقات فراغك.. ولا سيما عند المقيل وقت حرارة الشمس.

وما إن سمع اليهودي هذه القصة حتى عاد أدراجه من حيث أتى ولم يجرؤ على دخول هذه المدينة التي يستطيع أطفالها تلقينه هذا الدرس في مبادئ الاقتصاد.

ويمضى رواة القصة ليؤكدوا لك أنه لا أمل ليهودي في النجاح بمدينتنا ولن نسمح لأحد أن نتقص من قوتنا.

أما التلال الليبية التي تمتد غرب المدينة فتشتهر بمقابرها الكبيرة المحفورة في الصخور الجيرية والتي تبدو فتحاتها للعين المجردة من أبعد مكان في الوادي، وكانت هذه المقابر الجبلية ملجأ لمعتنقي المسيحية في القرن الأول الميلادي _قبل أن تدفنها العواصف الرملية_ يلجئون إليها هربًا من الاضطهاد الروماني وسعيًا وراء حياة الزهد وسلام الروح وتقربًا إلى الله بالعبادة ليسعدوا في الحياة الأخرى.. إن هؤلاء المؤمنين الأوائل كانوا يؤثرون الابتعاد عن المجتمع الدنيوي وملاهيه ويقبلون بقلوب ملؤها الإيمان على هذه الرياضة الروحية مستعذبين في سبيلها آلامها الجسمانية ينشدون من وراء هذا التأمل والتحنث الخلاصَ من الذنوب والنجاة.

وإن الإنسان ليشاهد آثار الدخان على جدران الكثير من هذه المقابر مما يدل على أن الأحياء سكنوها طويلًا بعد أن احتفظت بأجساد الأجداد أجيالًا متعاقبة.

وإلى جانب مقبرة هب زيفا الرئيسية والمعروفة بين الأهلين باسم "إصطبل عنتر" نسبة إلى الفارس العربي الشهير، توجد مقابر أخرى غنية بكتابتها الهيروغليفية التي تحكي تاريخ وحكم الفراعين، ومن أشهرها مقبرة الجنود، وهي فسيحة الأرجاء قد نقش على جدرانها صورة جيش عظيم وقد لبس كل جندي فيه درعه الضخم ووضع عدة القتال.

وفى أسـيوط شـارعان رئيسـيان يصـلان إلى النهـر العظـيم عـبر السـكة الحديد، الشارع الشمالي منهما وهـو الأحـدث، يعـرف باسـم شـارع السـلطان حسين ويمتد إلى القناطر مجتازًا كوبري فوق ترعة الإبراهيمية ويـزدان جانبـاه بالقصور "الفيلات" التي يبز بعضها بعضًـا في جـمال البنـاء والفخامـة، ويوجـد خلف هذه المباني العظيمة حوض كبير من حياض الزراعة يزرع عدة مـرات في العام، وتغمره مياه النيل في موسم الفيضان فتصل المياه إلى أسـوار المغـازل أو الحدائق، ويشاهد الإنسان عندئذ منظرًا من أجمل المناظر في الوجود ولا سيما في الليالي القمرية حينما تنعكس على صفحة المياه الأضـواء المختلفـة العجيبـة من السماء ومـن الأرض، ومـن مئـات المسـاكن المنـتشرة حـول هـذه البحـيرة الفضية التي تصل المدينة كلها ببعضها وتبلـغ حـدود الـتلال الغربيـة مخترقـة كثيرًا من شوارعها حتى ليوحي المنظر للمتأمل بأخيلة من فنيسيا ولياليها.

وفي فيلا منعزلة تحيطها حديقـة بشـارع السـلطان حسـين كـان يقطـن الأستاذ كامل المحامي، وكان لا يـزال أعـزب في سـنة 1919 وهـي السـنة التـي كانت مسرحًا لحوادث هذه القصة.. مقيمًا بمفرده بيـنما سـائر أهلـه وأقربائـه قد آثروا البقاء في قريتهم النائيـة قـانعين بحيـاتهم الريفيـة البسـيطة ورعايـة أرضهم وفلاحتها والحدب عليها، مخلصين لهـا الـود كـما أخلصـت لهـم الوفـاء وجادت عليهم بخيراتها العميمة وبركاتها الفياضة.

أما الأستاذ كامل فقد اختار حياة العزلة لإشباع أفكاره الخاصة وآرائه في الحياة، ولميوله البوهيمية ولم يكن طموحه في الوجود يتعدى أمجاد مهنته، ولمَّا كان ينحدر من أسرة غنية فقد استطاع أن يستأنف دراسته العليا لعدة سنين في جامعة أكسفورد ولقد مات أبوه وهو في إنجلترا فورث عنه ثررة عظيمة ضخمة أعانته على انتهاج السبيل الذي يتفق وميوله وما حصله من معرفة ونور أثناء دراسته في أوربا، فآثر الإقامة في أسيوط حيث يسهل عليه نوعًا ما أن يحيا الحياة العصرية التي يبتغيها.

وقد اتهمه أصدقاؤه بالاستعلاء عليهم بعلمه كما ظنوا به الانحراف والشذوذ، وكان هو يلقى هذه الاتهامات بالحلم والصفح عن أصحابها مسلمًا معهم بأن آراءه في العلاقات الاجتماعية شاذة بالنسبة إلى ما يعتنقه المجتمع القائم فيما حوله..

وكثيراً ما كانت تواجهه مشكلة الاختلاف البيِّن بين ما يراه صوابًا وما تعتنقه البيئة، ويحس الصراع الجبار بين العقليتين حتى ليحسب أنه من عالم غير هذا العالم أو أنه لم يخلق ليعيش في هذا المحيط.

لقد كان الأستاذ كامل الابن الوحيد لرجل مسلم محافظ، ولقد أورثه هذا الوالد الكثير من الأفكار الرجعية والخرافات التي لا تتفق بحال مع ما تلقَّى من علم وخبرة أثناء أعوام إقامته في أوربا، ومن العبث أن نقرر أنه كان مقتنعًا في قرارة نفسه بالآراء الحديثة طالما أنه لم يستطع أن يتحرر من كثير من الجمود القديم في واقع الحياة.

ومع هذا فقد كان يحاول أحيانًا أن يرسم لنفسه طريقًا خاصة بين الشرق والغرب على أسس مثالية أخلاقية جديدة _مستوحيًا في ذلك حكمة الحكماء العالمين القدماء منهم والمحدثين_ تتفق وما بلغه من علم وما يحسه من تطور الحياة وما آمن به من آراء.

وكثيرًا ما كان يساوره الشك في قيمة هذه القوانين المفروضة على الناس لحماية بناء المجتمع البشري _رغم اعتقاده بأنها كانت لازمة في وقت من الأوقات_ لما يراه من فشل التطبيق العملي والفساد المستشري في عصره الحالي.

وفي أحيان أخرى كان يعتريه اليأس فيترك كل جدل في الموضوع وكل رغبة في استقصاء الحقيقة ويقول: "لتمضِ الحياة بسلام..".

بل إنه بلغ المدى في هذه الفكرة حتى أصبح جبريًّا أكثر منه مفكرًا حرًّا.. باحثًا عن لذته بدلًا من السعي وراء فكرته.. طغت عليه روح الشك السائدة في العصر والتي تدفع بعبيدها إلى ارتياد أماكن العبادة، وهم في نفس الوقت لا يشعرون إيمانًا بالمعبودات ويسخرون مما تفرضه الديانات على أتباعها من طقوس وواجبات، لكن لم يكن يجرؤ على الجهر بإلحاده.

ورغم ذلك فقد كان مخلصًا لعمله فغدا في وقت قصير من مشاهير المحامين في المدينة ذوي العملاء الممتازين.. ذا إرادة قوية، فلم تغلبه عادة أو شهوة على أمره فهو لا يحب الخمور ولا يستهويه الميسر ولم يسمح لامرأة أن تستعبده أو تتحكم في عواطفه.

وعندما كان زملاؤه يتناقشون في موضوع الزواج كان لا يشترك معهم بأكثر من ابتسامة خفيفة ساخرة لما يعلمه من أمر الزيجات التعسة العديدة، والأزواج الذين عاشوا أعوامًا في الهم والعذاب والذين تردوا في مهاوي الرذيلة والفضيحة، والذين انتهى بهم الأمر إلى الطلاق بعد أن أصبحت العشرة بينهم لا تطاق..

كان يعزو سبب هذا الإخفاق إلى الرباط القانوني الذي يربط المرأة بالرجل مدى الحياة _كما هو مفروض_ ولو لم تكن بينهما الألفة الروحية أو الانسجام العاطفي.. وكان يرتقب ظهور نبي جديد أو داعية يأتي إلى العالم بتعريف حديث "للأسرة" يقوي أواصرها، ويضع قواعد جديدة لهؤلاء الأزواج الذين يصرون على الارتباط لمدى الحياة.. ولم لا؟! ألا يسري قانون التطور على كل شيء في الحياة؟! وهل العلاقات الجنسية خرجت عن كونها جزءًا من طبيعة البشر يجوز أن تتطور لتساير تقدم الحياة وما بلغته من رقي وتحرر ولتضع حدودًا لمسئولية كل جنس وفق الأوضاع الجديدة في الكون؟!

وفي صومعته _كما كان يحلو له تسمية هذه الفيلا الأنيقة_ بعيدًا عن أعين الفضوليين وفي أمان من النقد كان يحس بأنه قد تحرر من قيود المجتمع فيفعل ما يشاء، ويطلق لنفسه الحرية في أن تأتي ما تريد وتحقق ما يصوره له خياله وما يعتقد أنه الحق والصواب.

وكان مسكه مؤثثًا أثاثًا فاخرًا عظيمًا وأنيقًا.. لا يفتقر إلى حلاوة الذوق وجمال التنسيق كما كانت له مكتبة عامرة بالكتب، إلى جوارها بيانو يشاركها في عزلتها ويخلص لها الرفقة، وفي البهو بعض اللوحات الزيتية لبعض مشاهير الفنانين وسجاد ثمين وأثاث من طراز لويس الرابع عشر.

وكانت حافظة أوراقه مليئة دائمًا بالقضايا التي يخصص لدراستها الكثير من وقته في البيت، كما كان يباشر عمله مبكرًا ويستيقظ دائمًا مع شروق الشمس ليكون على استعداد للعمل.

ويشرف على شئون هذا البيت طاهٍ يدعى الشيخ علي وفاطمة _التي مر ذكرها_ وهي تحضر يوميًا للقيام بأعمال النظافة والتنسيق مع الصباح منذ عشرة أعوام، ولا همَّ لها إلا العمل الذي لا تكل منه ولا تتعب وإلا السهر على صحة سيدها والتفاني في خدمته والتضحية بكل شيء في سبيل كلمة طيبة أو ابتسامة رضا تلمحها على وجهه.. لقد أحبته حبًا يقارب التقديس، فلم تبالِ بتلك الشائعات الكاذبة التي يشيعها الجيران ويصرون على تكرارها والإساءة بها إليها..

إنهم يتهمونها بإحضار نساء محجبات مستخفيات خلف ملاءات وأقنعة كثيفة مع الفجر عند حضورها أو في ظلمة الليل، ومع ذلك فلا يستطيع أحد من الناس _لو طلبت منه أن يقسم على ما يقول_ أن يقرر أو يذكر أنه رأى مرة واحدة أو لمح من خلف نافذة أو من وراء

ستار شبح امرأة في هذه الصومعة الهادئة أو سمع بأن صاحبها أقام حفلة صاخبة بين جدرانها في ليل أو نهار.

ولم يكن كامل ليأبه للاستماع إلى مثل هذا القصص الأحمق أو الشائعات المغرضة بل كان يفضل الإعراض عنها ويترك للأيام دحضها، مؤثرًا ما أخذ به نفسه من حياة هادئة رتيبة اعتادها وسكنت روحه إليها فلم يعد يستهويه المرح الزائد ولا يستولي على تفكيره التشاؤم أو اليأس القاتل.

وبينما كان يجلس ذات صباح يطالع البريد الذي تسلمه منذ قليل، إذ سمع طرقًا لطيفًا على حجرته فرفع بصره عن الورق وأذن للطارق بالدخول دون أن يبرح الأريكة التركية التي كان يجلس عليها ببيجامته.

ظهرت فاطمة على عتبة الباب الذي فتح ببطء وحذر ورفعت يدها إلى جبهتها محيية كما يفعل الرجل وقد علت شفتيها ابتسامة مشرقة، وهي تقول: "أسعد الله صباح سيدي وجعل يومه يوم سرور وسعادة".

"أسعد الله صباحك.. لا بد في الأمر سر طفح على وجهك بكل هذا البشر والسرور".

"السعادة مقبلة عليك إن شاء الله يا سيدي".

هيا وحدثيني بالخبر.. "قالها وقد زاد حديثها في فضوله وشوقه للنبأ".

"إن سيدي لا ينكر احترامي له وتفانيٍّ في خدمته".

"فاطمة.. عجِّلي ولا تزيدي في قلقي".

"بالاختصار يا سيدي إني ألتمس منك منة جديدة، كما أطلب الصفح عن اجترائي بتقديم فتاة إليك.. فتاة عرفتها بالأمس فقط، إنها صبية آية في الجمال كما إنها عبرة في التعاسة والشقاء.. إنها مخلوق بديع حلو الحديث لكنها غير خبيرة بالحياة وما فيها من ملاذ الخمر والجسد، ومع ذلك فهي عاطفة فياضة وتستحق العطف لكل شيء.. لقد وضعت فيَّ آمالها ووجدت فيَّ عزاءها ولقد وعدتها بالمساعدة والمأوى.. ليأمر سيدي بإحضارها وسيتحقق عندئذ أن فاطمة لم تبالغ في شيء".

"وأين تركت هذا الكنز الفريد؟".

"لقد تركتها في حجرتي المتواضعة لتمضي يومها في رعاية الله".

"إنك أثرتِ فيَّ فضولًا كبيرًا وشوقًا لأرى وأختبر مدى جمال ذوقك وحسن اختيارك مُمَثلينٍ في هذا المخلوق الصغير النادر الذي أبدعت وصفه وأحسنت الكلام عنه بحرارة وإخلاص.. لكن أين أسرتها وزوجها؟".

"لعل سيدي لم يلقِ بالًا إلى قولي: "إنها عبرة في التعاسة"، بل هي أشقى مخلوق في أسيوط ولا يقف إلى جانبها أحد".

"وكم عمرها؟".

"لا يزيد على السابعة عشرة أو الثامنة عشرة على الأكثر".

"في هذا السن وبهذا البؤس؟! وكيف كان ذلك؟".

"لقد أخبرتني أنها كانت خادمة عند المرحوم حسين بك حكمدار البوليس الذي انتحر حديثًا وأرجو أن تعلم أنها تدعي ذلك، أي أنها لم تكن أكثر من خادمة، إنما أنا قد علمت يقينًا من إحدى جيراني بأنها كانت تنعم في كنفه كما لو كانت سيدة البيت الأولى".

تجهم وجه كامل عند ذكر حسين بك ووفاته المفاجئة المروعة، للصداقة التي كانت تربطه به ولما يعرفه عن ذكائه ونبوغه، وما كان يُرجى له من مستقبل كبير أضاعه بهذا الحادث الغامض الذي تتحدث عنه المجتمعات وصالونات الأندية..

ولقد كان كامل يحب الحكمدار الراحل بل ويقدره رغم الشائعات الكثيرة التي كانت تتحدث دائمًا عن سوء سلوكه الخلقي، والتي كان يرجعها كامل دائمًا إلى روح الحقد والحسد التي يحسها الناس نحو كل شخص نابه، وعاد يقول لفاطمة بعد إطراقة قصيرة: "عجيب ما تذكرين.. لكن أين وكيف لقيتها؟".

وقصت فاطمة قصة ذلك اللقاء وكل ما علمته من أمر الفتاة كما أنبأته بأنها قبلت ضيافتها إلى أن يقضي اللـه في شانها أمرًا.

كان كامل ينصت للقصة وقد استولت على مخيلته ذكرى صديقه الراحل، الذي أكرم هذه المخلوقة البائسة حتى خيل إليه كما لو كان يراه أمامه يسأله أن يساعدها من أجل ما كان بينهما من ود وصداقة.

وما إن انتهت فاطمة من سرد القصة حتى كان قد صمم على إيواء الفتاة اليتيمة في بيته سرًا دون أن يشعر بمقدمها أحد إلى أن يجد لمشكلتها حلًا، مستلهمًا اللـه في أمرها مستعينًا به في بذل كل ما يستطيع من جهد من أجلها ومن أجل آدميتها المهدرة.

ابتهجت فاطمة لهذا النجاح الذي حققته بسهولة غير منتظرة، وسَرَّها أن أسدت يدًا إلى صديقتها وإنها ستساهم بهذا العمل في إدخال السعادة في المستقبل على قلب سيدها.

وما إن انتهى يومها حتى غادرت البيت على أن تعود مع فجر اليوم التالي ومعها الفتاة.

أما كامل فحالما اختلى بنفسه أمسك بالمذكرة التي كان يزمع دراستها ليستأنف عمله، لكن لدهشته لم يستطع تركيز تفكيره في العمل، بل وجد ذهنه قد شرد منه وتبددت أفكاره وطافت كل مطاف وسرحت كل مسرح وأخيرًا جسمت في خياله طيف امرأة قد تدثرت بملاءة لم تظهر منها شيئًا.. ووجد نفسه يحاول التطلع إلى ما تحت

هذا الغطاء الكثيف دون جدوى فأخذ يتصور هذا الجمال المحجوب عنه وما ينتظره من ثروة فنية عظيمة بظهور هذا الشباب فى بيته..

لكن صورة رجل برزت في خياله.. إنه رجل يلبس الملابس العسكرية قوي التركيب، لكنه متخاذل على نفسه يتوسل إلى المحامي ليرفق بها.. ويترفق بأمرها..

عجب المحامي وارتفع صوته ضاحكًا من نفسه ساخرًا من خيالاته العجيبة، وعاد يحاول عبثًا أن يركز انتباهه في العمل مرة ثانية.. فأخذ يقرأ ما في يده مرة وثانية وثالثة لكن الكلمات أمامه كانت قد فقدت كل معنًى ولم يعد لها في ذهنه مدلول.

ودقت الساعة فانتفض واقفًا في غضب ظاهر وقد خيل إليه أن وقت العمل قد فاته وأنه قد تأخر عن ميعاده، ومع ذلك فقد غادر البيت قبل ميعاده بنصف ساعة وعجب من نفسه التي ما زالت مستغرقة في أحلامها ومن الابتسامة التي ما برحت تتردد على شفتيه بين حين وآخر.

وعندما بلغ مكتبه ودخل إلى غرفته بالمكتب عجب من نفسه ومن إقبالها على العمل وسعة صدره وعدم تبرمه بشيء، بل لقد استطاع أن يجد في كل شيء متعة ممكنة، حتى المفكرة التي اعتاد أن يترك أمرها للكاتب قد أمسك بها اليوم وأخذ ينظم فيها المواعيد والقضايا، وبعد فترة من العمل غير قصيرة، ركب العربة إلى المحكمة

وكم كان سروره عظيمًا عندما طلبت النيابة التأجيل في أهم قضية عنده في ذلك اليوم كان عليه أن يترافع فيها عدة ساعات.. فوجد نفسه حرًّا يفعل في وقته ما يشاء، فانطلق إلى الحدائق العامة القائمة على الإبراهيمية وهناك استغرق في بحور من تأملاته وأفكاره ولم يشأ في ذلك اليوم أن يتعجل العودة فأخذ سمته إلى البيت سيرًا على أقدامه ليتيح لنفسه أطول فترة ممكنة من الوحدة والتفكير.

وعندما جلس إلى مائدة طعامه بعد الثانية بقليل لم يحس أي شهية للطعام أو رغبة فيه رغم هذا الوقت الطويل منذ إفطاره وهذه الرياضة التي قام بها طوال يومه.

ومضى بعد الغداء إلى مكتبته وفكره مشغول فلم يلقِ بالًا إلى البيانو الذي اعتاد أن يجلس إليه كل يوم ساعة بعد الفراغ من الطعام.. لا ولم يشعر نحو كتبه بأي عاطفة أو رغبة في تقليب صفحاتها بل استولى عليه شعور بالقلق أخذ يزداد بمضي الدقائق حتى تملكه العجب من نفسه وأخذ يتساءل: "أكل هذا من أثر حديث الصباح مع فاطمة؟".

أجل.. إنه ينتظر مفاجأة سعيدة ولو أنه لا يستطيع تصوير كنه هذه المفاجأة، إلا أن ثقته التي لا حد لها بفاطمة واعتقاده بأنها لم تخذله قط وليس من المحتمل أن تخذله اليوم، جعلته يؤمن بأن الواقع سيكون أبلغ وأروع مما صورته بكلماتها.. لأنها لم تكذبه أبدًا..

وأخيرًا أقبل المساء ومضت الساعات ثقالًا وهو يرقب عقربي الساعة اللذين أمعنا في الكيد له فوقفا في مكانهما لا يريمان.. وحلت ساعة النوم فنهض إلى فراشه واستلقى عليه يحاول النوم فلا تطاوعه عيناه ويدعو مورفيوس إلهة الأحلام أن تقبل عليه وتهبه النوم ليهنأ في رفقتها بحلم جميل لكنها تتأبى عليه.. فلم يحظَ بالنوم إلا بعد منتصف الليل بطويل، وكان نومًا مضطربًا متقطعًا تتخلله الأحلام والرؤى التي تداعب خياله منذ صباح اليوم السابق، حتى أنه أحيانًا كان يخيل إليه أنه يسمع طرقًا خفيفًا على الباب فيهب من مرقده ليفتح الباب، لكنه لا يجد أحدًا فيدرك أن الأمر كان من فعل خياله المكدود، وأخيرًا بعد أن أرهقت أعصابه إرهاقًا بعيدًا راح في سبات عميق لم يفق منه إلا بعد طلوع الشمس على صوت طرقات خفيفة على باب مخدعه.

لم يصدق أذنيه أول الأمر وحسبها خدعة من خيالات الليل لكن الطرق تكرر مرة ومرة واشتد في كل مرة عن سابقتها، فقفز من الفراش وهو يصيح "ادخل.. ادخل".

وظهرت فاطمة على عتبة الغرفة مشرقة الوجه وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة الواثقة بنفسها وإلى جوارها امرأة أخرى ارتدت ملاءة وحجبت وجهها "ببيشة" كثيفة لم تفصح عن شيء مما تحتها.. وقفتا في انتظار الإذن لهما بالدخول.

جلس كامل على الأريكة وعاد يقول "تفضلا.. تفضلا" فجذبت فاطمة صاحبتها من خصرها وهي تدفعها برفق إلى وسط الغرفة قائلة: "ها نحن.. أنا وأختي نبيهة.. نتمنى لك صباحًا سعيدًا".

كامل: "أسعد الله صباحكما".

قالها المحامي وقد بدا الفرح في نبرات صوته ثم خيم الصمت بعد ذلك لحظة وأطرقت نبيهة في خجل وكأنها ترقب ما سيقضي به القدر بعد ذلك.

وبادرت فاطمة بإنقاذ هذا الموقف وتبديد الحرج قائلة لنبيهة "اكشفى وجهك يا أختاه ولا تخافي بأسًا.. لقد أصبحت في حمى سيد كريم".

وبعد تردد طويل كشفت نبيهة عن هذه الفتنة المحجوبة وقد أطرقت خجلًا وأرسلت عيناها العسليتان الساحرتان نظراتهما إلى الأرض.

لكن بين لحظة وأخرى كانت نظراتها تلتقي ونظرات المحامي الذي أذهلته المفاجأة بقدر ما سرته، فغاب في بحور من أحلام السعادة ما كان يفيق منها برهة إلا ليلتهم هذا الجسد اللدن والوجه الفاتن بنظراته العطشى المتوسلة.

واقتربت فاطمة من صاحبتها وهمست في أذنها تسألها عن رأيها في سيدها الجديد فأجابتها وهي تختلس النظر إليه: "كم هو جميل".

أخيرًا تحدث المحامي موجهًا الكلام إلى فاطمة: "الأمر أصبح في غير حاجة إلى شرح جديد منك وليس مطلوب منك أي ضمانة جديدة بشأن ضيفتك.. لقد اقتنعت تمامًا بحسن أخلاقها وأمانتها والآن علينا أن نتفق معها على الشروط".

وتقدم من نبيهة قائلًا: "هل تقبلين البقاء تحت سقف هذا البيت بمحض اختيارك وحريتك مع الثقة التامة بأنك ستلقين الاحترام الكامل لشخصك؟ ثانيًا أنك ستعاملين هنا وفق عواطفك وميولك؟".

صمتت الفتاة فعاد كامل يقول "إنى اعتبر سكوتك رضًا وقبولًا وعلى ذلك فلتعلمي أن عليك وحدك مسئولية العناية بنظافة وترتيب هذا البيت وسيعاونك في العمل الشيخ علي وفاطمة، أما الأجر فسيكون كما تطلبين".. فقالت الفتاة: "سيدي قد بلغ منتهى الجود والكرم وقد بالغ في الشفقة بالمساكين.. جزاك الله عنا خيرًا"، ولم تستطع نبيهة إتمام حديثها وخنقتها العبرات وانتثرت دموعها كالآلئ على خديها فبلغ التأثر بكامل أقصى المدى كما أعجب ببساطتها وظاهر إخلاصها وبؤسها.. وعاد يقول: "كفى.. كفى يا بنيتي.. أرجو أن تنسي هنا كل ما صادفك من أيام قاسية أو أحداث مؤسفة.. فاطمة اذهبي معها إلى المطبخ وأطلعيها على ما هو مطلوب منها بالتفصيل" وغادرت المرأتان الحجرة بينما قفز هو من مكانه وقد استخفه الطرب فعاد به أعوامًا وأعوامًا إلى الوراء، وأخذ في خلع "بيجامته" سريعًا

وإلقائها بعيدًا عنه ثم اتجه إلى ملابس الخروج يلبسها، وهو يترنم بإحدى الأغنيات في صوت خفيض..

حقًّا لقد حصل على ما يبغي بعد ليلة طويلة من الشك والقلق والعذاب.. لقد تبخرت المتاعب وحلت محلها الآمال الجميلة والسرور والتفاؤل.

وفي غمرة هذا المرح أخذ يتحدث إلى نفسه همسًا أحيانًا وبصوت مرتفع أحيانًا مرة، يقول: "يا إلهي أكل هذه السعادة التي أحسها من أجل قدوم هذه البائسة الغريبة علينا؟" ثم يعود فيقول وكأنه يجيب على سؤالٍ وجه إليه: "جميلة وصغيرة ويبدو أنها مرحة وخفيفة الظل".

لقد فرغ من ارتداء ملابسه سريعًا وعندما دخل بهو الطعام كانت نبيهة واقفة هناك يقطر من يديها الماء بعدما اغتسلت وارتدت جلبابًا نظيفًا.. لم يكن هناك ملاءة ولا نقاب يمنعان جلال جمالها من الظهور بكل قوته.

لقد كانت هناك كأحد تماثيل الجمال الإغريقية في تناسق أعضائها وجمال جسدها وانسجام أجزائه..

راعه ما رأى من جمال فأخذ يتأمله تأمل العابد المتبتل في محراب معبوده.. ينشد الأناشيد الصامتة التي أفصحت عنها نظراته الفاحصة.. تلك النظرات التي لم تترك جزءًا من هذا الجمال دون أن تتوقف أمامه

لحظة في خشوع.. من أعلى الرأس حتى أسفل الكعبين إلى القدمين العاريتين والساقين الجميلتين البارزتين من تحت الجلباب القصير.

عاودته أحلام الأمس الجميلة وأخيلته السعيدة وآماله العذاب في أيام نضرة مقبلة، وأحس بالخدر اللذيذ يغمر مشاعره فاستسلم لتلك الأخيلة والأحلام في نشوة ولذة، وسيطرت عليه رغبة عجيبة في التحرر من كل قيد حتى قيود العمل، ثار عليها وصمم على البقاء في البيت في ذلك اليوم لينعم بالانطلاق الكامل من كل قيد واحتجَّ لنفسه بأنه سيساعد المرأتين في تنظيف وترتيب المنزل.

وبدأت أفكار الشباب الباكر ورعونته تعاوده وأخذت أخيلة شباب العشرين وأفكاره غير الناضجة تتردد على تفكيره رغم أنه تخطى الخامسة والثلاثين.

لكن هذه الأوهام لم تصمد طويلًا أمام الامتحان إذ سرعان ما تذكر مركزه واحترامه ووقاره وما يجب عليه، والتزاماته أمام عملائه وواجبه إزاء عمله فانطلق إلى مكتبه الذي وصله متأخرًا للمرة الأولى في حياته، لكنه كان أكثر مرحًا مما اعتاده عملاؤه وألين جانبًا مما عرفه موظفوه.

يقول بعض علماء النفس إن الشعور بالكآبة يرجع في معظم الحالات إلى أمر تافه جدًّا، وما علينا إلا أن نستعرض أحداث اليوم وسرعان ما سنكتشف مصدر الألم الذي نحسه وهو تافه جدًّا، لكن ما

يعترض المرء بعده مما يغضب أو يثير النفس يزيد في إثارة الأعصاب حتى تصل الحالة إلى أوجها وعندئذ تستولي على المرء كآبة شديدة يحار في تعليلها.

وإذا كانت القاعدة كذلك في الكآبة، فهل من الممكن أن تسري على حالات المرح والسرور؟! ولم لا يكون السرور مبعثه فكرة ولا نقول تافهة بل موحية بآمال وتفاؤل؟

عندما عاد كامل ظهرًا إلى البيت وجد المرأتين منهمكتين في تنظيف وتلميع زهريتين من البرنز كانتا قد أوشكتا على التلف من طول إهمالهما وعدم استعمالهما، فهمس لنفسه: "وحق الرحمن إن فاطمة لا تتصور أن للزهريات عناية خاصة وطريقة لتنظيفها.. وليست الفكرة فكرتها بكل تأكيد.. ولا هي فكرة الشيخ علي الذي يجهل كل شيء خارج مطبخه".

ثم أخذ يتأمل في بيته وقد اكتسى حلة قشيبة كما لو كان اليوم يوم عيد، ولدهشته لم يجد فيه شيئًا من الأثاث جديدًا، لا ولم يغب شيء قديم بل كل ما هنالك تغيير طفيف في أماكن الأشياء، وأشياء أخرى أصبحت ذات بريق جذاب.

وأحس كامل بسروره يتزايد وأغمض عينيه وقد شعر برغبة لأن يرى بعين خياله بعض ما داعب فكره من أحلام وصور.

وبعد أن تناول الغداء والقهوة قفل راجعًا إلى مكتبه لينجز ما عنده من أعمال كثيرة وقد أبعد عن عقله الأفكار الخبيثة وتخلص من همس

الشيطان ووسوسته الأثيمة وأحس بسعادة كبيرة لما قر عليه رأيه من ترك المرأتين في سلام ليفرغا من عملهما دون أن يزعجهما وجوده أو يشعرهما بشيء من الحرج أثناء العمل.

عندما عاد في الليل إلى البيت كان كل شيء قد نظم ونسق كما وجد أغطية الفراش قد غسلت وكويت وخشب الأثاث قد نظف بالطلاء الخاص به، والستر الممزقة قد أعيد خياطتها وإصلاحها وأرض البيت جميعها قد نظفت، وكان كل مكان في البيت فيه رائحة النظافة ويشهد بأن يد العناية قد مسته وعنيت به.. كل هذا قد تم في يوم واحد.

لا شك أن حالة المنزل قد تغيرت وأن التغيير كان إلى الأحسن يشهد بذلك حتى الأعمى فلعل ذلك يكون بشيرًا للخير والنظام فيما سيأتي من الأيام.

وكان هناك حجرة صغيرة بجوار الحمام أعدت لنوم نبيهة وما إن وافت ساعة النوم حتى سمعها كامل تغلق باب غرفتها بالمفتاح فتبسم ضاحكًا لما فعلت، ولم يحس هو حتى تلك اللحظة برغبة في النوم ففتح الشرفة البحرية الصغيرة المتصلة بغرفة نومه وأحضر كرسيًا جلس عليه وسبح في تأملاته وسط الليل البهيم، وكان بين لحظة وأخرى يرسل طرفه يرعى النجوم المنتشرة في صفحة السماء وقد زاد تألقها بعد غروب القمر.

وأحس وسط هذا السكون الشامل بالكآبة تستولي عليه ومباهج اليوم الكثيرة تخبو في نفسه ليحل محلها شعور بالقلق الذي يعذب فكره وصورة من ماضيه الطويل تثقل على قلبه الذي عاش في وحدة وفراغ حتى تلك اللحظة.

وعلا تفكيره حتى أصبح همسًا يخرج من بين شفتيه: "إنني أجني ثمرة ما زرعت من أنانية". وكان هذا حقًّا فلم يكن هناك أحد يشاركه في نجاحه العظيم الذي حققه في مهنته ولا يسري عنه ما يلقاه في حياته من عناء ومتاعب.. كما لم يكن هناك أحد يستطيع الادعاء بأنه كان أهلًا لثقته لأنه لم يفكر يومًا في الإفضاء بشيء مما يعتمل في نفسه من مسرة أو ألم إلى أحد.

أي نقيض وتفاوت عجيب في الخلق والسلوك بينه وبين الحكمدار _سيد نبيهة السابق_ الذي قطع حبل حياته في صورة مفجعة غير مشرفة؟!

وعندما مرَّ ذكر الحكمدار بخياله لم يستطع أن يمنع يده من أن ترتفع بحركة لا شعورية إلى أعلى ثم تنحط إلى جانبه ثانية في إشارة دالة على العصبية واليأس.

بكل تأكيد.. كم يختلف هو عن الحكمدار الراحل؟! لقد كان ذلك الضابط من أصل شركسي وله عينان زرقاوان اعتاد أن يزينهما بنظارات ذهبية كما كان شعره ذهبي اللون وبشرته ناعمة بيضاء وكان

قصير القامة ولا يفارق سوطه القصير يده كما لو كان دائمًا متأهبًا لركوب جواده..

لكن ما هو الدور الغامض الذي كانت تقوم به للحكمدار هذه المخلوقة الصغيرة التي ترقد الآن في تلك الغرفة المتواضعة من هذا البيت؟!

لم يكن القائمقام حسين بالشخصية العادية بل لقد ترك في إقامته القصيرة بأسيوط ذكريات كثيرة لا تنسى.. لكن الموت عاجله ليعاون مع الزمن على القضاء سريعًا على كل أثر للرجل الذي كان نادر المثال بين العسكريين المصريين، بما امتاز به من إحاطة تامة بعدة لغات أجنبيه وعلمه الواسع الذي اكتسبه بكثرة رحلاته إلى الخارج وعقليته المتسعة التي تسامت على التعصب وأكسبته الاحترام والتقدير بين الجاليات الأجنبية.

ولو أن هذه الصداقة الوثيقة بين حسين والأجانب كل ينظر إليها مواطنوه من المحافظين بعين الشك والريبة، ولقد استحال هذا الشك إلى عداء عندما اتضح لبعض رجال الدين في المدينة حقيقة مغامراته النسائية التي أكسبته شهرة غير حميدة.

وابتسم كامل في جلسته عند ذكر مغامرات الضابط الفقيد وتذكر كيف كانت حياته الخاصة وسيلة للتشهير به في عمله ومثارًا للقيل والقال والتندر بين الأسيوطيين.

لكـن بجانـب هـذه الناحيـة كـان للحكمـدار آراء بالغـة في الشـذوذ والجرأة.. بل إن كامل لا ينسى تلك الليلة التي التقـى بـه فيهـا بنـادي المدينـة وكان الحكمدار يجلس بجانبه في الشرفة عـلى كـرسي مـن كـراسي الشـواطئ لا يني عن التهام (المزة) التي يجيء بها الساقي النوبي بـين لحظـة وأخـرى ولقـد دار النقاش بينهما عن النساء، فقـال كامـل: "إني أخشـاهن ولـذلك أتحاشـاهن وأعاف الاقتراب منهن كما يعاف المرء الخمرة الرديئة".

"بالعكس إن حواء تفتنني دائمًا كما تغـري زهـور الربيـع نحـل العسـل لكن فينوس نفسها، بعد أن أتـذوق جمالهـا وأعـتصره بقـوة تصـبح في نظـري مضجرة مملة كثوب خلق لا يساوي شيئًا".

"حسنًا.. حسنًا".

"لكني لا أبلـغ أبـدًا مـع النسـاء حـد التخمـة، بـل دائمًـا أحـتفظ بشيء لمغامرات اليوم التالي التي أقبل عليهـا بـنفس الأمـل والحـماس كـما لـو كنـت ذاهبًا إلى حرب مقدسة".

"وهكذا أنت دائمًا في حالة حرب هجومية".

"وما قيمة الحياة بغير حرب وكفاح؟".

ولكن كامل لم يسعفه فكره بردٍّ لهـذا السـؤال في تلـك الليلـة البعيـدة.. حقًّا كم تساوي الحياة بغير حرب أو كفاح؟

إن أسيوط كلها كانت تتحدث عن ذلك الضابط حتى آخر لحظة من حياته ولعل أهم ما أجمع عليه الناس أنه كان غير جدير بزوجه، تلك المرأة الوقور التي تنتمي إلى أسرة عريقة محترمة في البلاد والتي لفرط نبلها لم تشأ أن تثير فضيحة بطلب الطلاق من رجل مسرف في غيه ينشد التغيير كل يوم لذات التغيير، دون نظر أو تمييز بين من يصطفيهن من النساء سواء كن من أسر محترمة أو من الرعاع.

لقد كان كامل يختلف في نظرته إلى النساء عن ذلك الضابط لأنه كان يرى في النساء عقبة في سبيل مستقبل الرجل، ولا يرى أن العلاقات الجنسية حجر الزاوية في وجود الجنس البشري، بل يعتقد أنها مسألة ثانوية من توافه الحياة، ويجب أن يوجه التعليم بحيث تصبح الحياة العقلية في المكانة الأولى والغريزة الجنسية في مرتبة لا تتطلب معها أكثر من إشباعها، أو إعطائها كفايتها وكفى، لا أن تستعبد الروح والجسد جميعًا.

لكن القدر الساخر يتدخل الآن ليقلب نظرياته رأسًا على عقب ويتركه في محنة ما بعدها محنة..

إنه وهو المشهود له بالبرود وضبط النفس، لا يستطيع التحكم في أعصابه وعواطفه منذ يومين وقد وقع تحت تأثير عاطفة خفية أو قوة سحرية لا يدرك كنهها.

هل حقًّا أن هذه القروية البائسة والغرة الصغيرة التي لا خبرة لها بالحياة والتي لم يتبادل معها سوى بضع كلمات قلائل، هذه الخادم

البسيطة التي تسعى بين يديه وتحني هامتها أمامه قد استطاعت أن تحطم عقيدة السنين وثمرة دراسته الطويلة؟!

أحقًّا أن هذه الخادم الضعيفة التي أتت إليه من قريتها البعيدة قد استطاعت أن تسبب له كل هذا العذاب وأن تهزمه في عقر داره وتسخر من آرائه؟!

لكن كيف تم ذلك؟ ولماذ رضي به؟ وكيف سمح لنفسه بهذا الانتقال العجيب من النقيض إلى النقيض؟ أفي يوم وليلة يلقي بكل آرائه ونظرياته ظهريًّا ويسلم نفسه لأفكار وأحلام طائشة عجيبة؟

وبعد ساعات من التفكير العميق والسبحات الحالمة أثقل الكرى عينيه ومالت رأسه على كتفه اليمنى وراح في اغفاءة لم يفق منها إلا عندما هبت نسمة رطبة منعشة أبردت جبهته المبللة بالعرق، ووصل سمعه صوت شخص يحاول فتح باب حجرته ثم وقع خطوات حذرة تقترب منه، وحاول أن ينهض من مكانه لكنه كان عاجزًا تمامًا عن الحركة.

وظهرت فجأة أمامه امرأة رائعة الحسن مسرفة في الجمال، بهره منظرها ولم يستطع أن يطيل التحديق إليها ليتبين ملامحها جيدًا وانحنت سريعًا تهمس في أذنه: "لا تضع الفرصة التي أتاحها لك الحظ.. ولا تبدد الوقت الثمين في التفكير والتريث"، ثم قبلته في جبهته فامتلأت خياشيمه برائحة العطر الجميل المنبعث من جسدها الشهي حتى أسكر حواسه وأصبح وكأنه غارق في بحر من السعادة،

وسرَّه أكثر أن تحقق من ملامح وجهها جيدًا وأخذ يتذكر متى وأين رآها من قبل لأنه عرف الوجه الذي أمامه.

وفي غمرة هذه السعادة صاح بكل قوته: "لا.. لا لن أضيع وقتًا أكثر من ذلك".

واستيقظ على صياحه وفتح عينيه المجهدتين ليجد نفسه وحيدًا ولا شيء حوله سوى الفراغ والباعوض المتكاثف حول المكان والذي لا ينى عن عضه ووخزه وقد أخذ يتحسس جبهته في مكان وخز الباعوض، وكان لا يزال مأخوذًا بسحر ما رأى، لا يستطيع الجزم أكان ما رآه حقيقة أم هو الخيال قد خدعه عن نفسه؟!

وبعد لحظة تردد، انتصب واقفًا واندفع إلى داخل الحجرة فلم يجد شيئًا فتجاسر وفتح باب البهو فوجد السكون يخيم على كل شيء لا يقطعه سوى شخير الشيخ علي المنبعث من المطبخ، فابتسم من نفسه وعزى ما رأى إلى أضغاث الأحلام وأغلق باب الشرفة وألقى بجسده المرهق على الفراش وسرعان ما راح في سبات عميق.

وفي اليوم التالي وجد نفسه لا يزال نهبًا للأفكار ولهذا العذاب النفسي وقد زادت شكوكه وأوهامه ولم يستطع الاطمئنان إلى رأى بذاته، حتى خيل إليه أن بداخله شخصيتين مختلفتين تمام الاختلاف تقتتلان، أمَّا الأولى فهي شخصية المحافظ الذي يرعى التقاليد والذي كانت له السلطة المطلقة حتى أتت إليه فاطمة وصاحبتها، أما

الشخصية الثانية فكانت شخصية المتساهل في حقه ولو أنه لم يكن أقل سلطة واستبدادًا.. ثائرًا حانقًا على كل شيء يرفض وضع حدود لملذاته الحسية وفي نفس الوقت يأبى الاعتراف باستقلال الرجل عن المرأة، بحيث لا تعدو الأخيرة عن أن تكون من سقط المتاع بل هي المخلوق المتمم للرجل على أن يحتفظ كلٌّ بحريته الكاملة وبذلك يتحقق الانسجام الكامل في المجتمع أو بعبارة أخرى بين الجنسين.

لكن الديكتاتور المحافظ يعود فيقول: "حسنًا جدًّا، لكن ألا ترى معي أن الكمال من صفات الله وأن الرجل لا يقترب من الكمال حقًّا إلا إذا تغلب على شهوات الجسد وقهرها واستطاع أن يتغلب على إغرائها؟!" فيجيبه الرجل العصري: "هذا كذب.. هذا هراء، وإلا فلتذكر لي رجلًا واحدًا من النابهين في التاريخ الذين خلد ذكرهم للناس، قد اشتهر بكراهيته للنساء.. إن القواد المنتصرين والفلاسفة الكبار ومشاهير الشعراء.. كل هؤلاء قد تحملوا تسلط المرأة وربما استبدادها كضرورة من ضرورات الحياة والوجود الموحد المتسق.. ألا تذكر كيف عاقبت الآلهة تانتالوس بالعطش الدائم فكان يقف في الماء الذي يغطيه حتى عنقه، لكنه لا يستطيع أن يشرب منه وذلك بعد أن استسلم لشهواته..".

وانقضت الليلة التالية دون أن تمتد يده ليتذوق ما أرسل عليه الله من المن والسلوى، لكن في اليوم الثالث لم يستطع أن يقاوم هذه النيران المضطرمة بين جنبيه فانفلت بعد العشاء إلى الشرفة الشمالية

وجلس على كرسيه المريح يسبح ببصره في الفضاء أمامه والحقـول مـن تحتـه، بينما كان يصل إلى سمعه المرهف صوت نبيهة وهى تنظـف المائـدة في البهـو الخارجي ووجد نفسه فجأة يهتف: "نبيهة.." فأقبلت الفتاة تمشي على استحياء فعاد يقول لها: "اجلسى يا بنيتـي قريبًـا منـي ودعينـا نتحـدث قلـيلًا فـما زال الوقت مبكرًا جدًّا للنوم".

وجمت الفتاة للمفاجأة ولم تستطع أن تتبين مرمى كلمات سيدها جليًّا، فوقفت مترددة، أتهرب من هذا المكان، أم تنتظر ما تتمخض عنه المحادثات؟! وكاد الطبق الـذي في يـدها أن يسـقط عـلى الأرض فقـال لهـا في لهجـة شـابها الحنان: "ضعي هذا الطبق على المائدة وتعالي لتستريحي قليلًا إلى جواري".

وأطاعـت الأمـر وعـادت لـتجلس عـلى الأرض وقـد ثنـت سـاقها تحتهـا وأحنت رأسها في خضوع ذليل وكأنها ترى نفسـها أصـغر شـأنًا مـن أن تحظـى بمثل هذا الشرف العظيم.

وفي نفس الوقت كان كامل قد أخذ يؤنب نفسه بعد أن استشعر نـدمًا مفاجئًا لتسرعه الذي اعتبره ضعفًا غير كريم.. إلى أي هاوية كان ينحدر سريعًـا حتى أباح لنفسه أن يجرؤ على دعوة خادمة حقيرة التحقت بخدمتـه حـديثًا.. يدعوها إلى صحبته كرفيق أو ندٍّ له.. يا له من انحطاط شنيع! إنه امتهان غـير محتمل للكرامة.. أين الأستاذ كامل ذو الثقافة العالية والوقار البارد العاطفة..

وثارت الشخصية المحافظة في نفسه ثورة عارمة مغضبة على هذا الفعل الشائن وأصر على طرد الفتاة من حضرته فورًا.

لكنه ما كاد يلتفت إليها ويرى هذا المخلوق الضعيف الرابض عند قدميه كحيوان أليف أو هرة صغيرة تنتظر كلمة عطف أو إيماءة رضا أو مداعبة رقيقة على ظهرها أو نظرة ارتياح، حتى أحس بقلبه يتحكم في الموقف ويذوب رقة وحنانًا وأذنيه تصم عن نداء الماضي وتزمت الغابرين، فتنفرج شفتاه عن ابتسامة عذبة ويشيع في نفسه روح من المحبة والإيثار لكل من حوله ويشعر كأن وقر الصراع القديم الذي كان قائمًا في نفسه قد انجاب عن كاهله وشاعت البهجة في كل ما حوله فيقول بعد لحظة صمت قصيرة:

"كيف وجدت عملك الجديد يا نبيهة؟ هل هو مريح؟".

"إنه بيت كريم يقيم فيه سيد نبيل".

"حسنًا.. لكن كيف اكتشفت أن مضيفك رجل نبيل؟".

"وهل في هذا شك؟ أليس في إيوائه عابرة سبيل لا يعرف عنها شيئًا أكبر دليل على نبله؟".

"جميل.. جميل جدًّا هذا الكلام، لكن ألا تتصوري الدوافع التي تدعو رجلًا للعطف على فتاة جميلة؟".

"أجل يا سيدي.. إنها نفس الدوافع التي تدعوه لأن يزين بالورد زهرية نادرة في غرفة استقباله".

"لا أستطيع أن أفهم ما تعنين؟".

"ألا ترى.. أننا نشتاق لأن يكون لنا أزهار موضوعة بعناية وتنسيق جميل في زهرية دقيقة الصنع لتزين حجرتنا ولنتيح لأنفسنا فرصة الاستمتاع بشذاها المعطر وألوانها الجميلة وأشكالها الفنية اللطيفة.. لكن تقوم في أنفسنا رغبة أخرى هي تذوق هذه الرائحة كما نحس ميلًا خفيًّا للمس أوراقها بأصابعنا..".

"مرحى.. مرحى أيتها الصغيرة.. إنني اليوم أستطيع الجزم بأني أتحدث إلى روح من أخف الأرواح التي عرفتها في حياتي".

وخيم الصمت عليها لحظة بعد ذلك، كان كامل خلالها يتأمل محاسنها ويتفحص نظراتها وبوده لو عرف ما يدور بهذا الرأس الصغير من أفكار، وما يسيطر عليه من مُثل عليا، بينما استمرت هي في إطراقها إلى الأرض كأنها تدرس السجادة المفروشة وما عليها من رسوم، وقد زادتها روح الحزن البادية على وجهها فتنة وإغراء وبدت في نظراتها البراءة والعفة.

وأرسل الليل أنسامه محملة برائحة الياسمين المتدلي على سور الحديقة تحية للعابدين في محراب ظلامه، الساهرين في تمجيد جماله.. بينما كان المصباح الكهربائي الأحمر الصغير المتدلي من أعلى الشرفة يشيع في المكان جوًّا من الرهبة والغموض بما يغيره من ألوان الأثاث والأشياء من حولهما..

وإذا أضفنا إلى ذلك دفء الجو في تلك الليلة، لسهل علينا أن نتخيل أي أحلام صيف كانت تجول برأس الرجل الجالس في المكان، لا سيما بعد أن انتصر اليوم على كل أفكاره القديمة ومثله العليا التي كبلته إلى عالم من الأوهام والخيالات، وانطلق إلى دنيا جديدة كما ينطلق المؤمن الجديد إلى التفاني في عقيدته الجديدة المستحدثة، يقدس مثالياتها ليثبت أركان ثورته ويقيم أسس حياته على قواعدها الحديثة.

عاد كامل يقول في مرح: "إذن أنت تعنين المرأة بهذا التشبيه اللطيف.. الأزهار".

"بغير شك يا سيدي وإني مع اعتذاري أقرر لكم أن الرجل في أيامنا هذه يود أن يستفيد من المرأة كما يستفيد من الزهرة، فهو في شوق ونصب في تتبعها والإبقاء عليها، طالما كانت غضة نضرة، لكنه برمٌ بها لا يريد رؤيتها إذا ما ذبل شبابها ونضارتها، وإذا ما تدخل القضاء وأراحه منها، شكر القضاء في قرارة نفسه".

"لكن أين تعلمت كل هذه الحكمة وكيف حصلت على كل هذا العلم بأحوال الجنسين وخبرة الحياة؟!".

"في تعاسة اليتم ووحشته وبؤس البيئة التي حييت فيها".

"لكنك فيما أعلم ليس لك أهل أو أقرباء يهتمون لشأنك".

"حقًّا ليس لي سوى وحش لا ضمير له، بل عدو وشر عدو، رغم أنه كان لأبي أخًا".

"لماذا؟".

"إن ماضي القصير كان سلسلة من الشقاء، وقد ضم بين دفتيه قصة محزنة ستعرفها يومًا ما".

وتنهدت الفتاة في ألم وتحيرت في مقلتيها الدموع، لكنها غالبتها حتى منعتها من النزول وأصبح الحديث بعد ذلك مملًّا لا معنى له وخلا من كل روح بينما كان كامل ينشد من جلسته السمر والضحك والسرور، فحاول أن يغير مجرى هذا الحديث قائلًا لها وهو يحاول مشاركتها أحزانها: "هل أحببت شخصًا ما من قبل؟" فزادت الفتاة إطراقًا يرأسها ولاذت بالصمت وعاد سيدها يقول بإلحاح: لماذا لا تجيبين على سؤالي؟ ألا أستطيع أن أحل محل أحد من أحبابك المخلصين؟ ثقي بي لأني أصبحت أهتم بمسألتك بل أخصها بأكبر عنايتي".

"سيدي.. أؤكد لك أن شيئًا من هذا لم يحدث.. حقًّا إن الحكمدار السابق حسين بك قد أسرني بعطفه فأحببته بعاطفة الخادم المخلص، وما أظن أن حب الخادم لسيده هو ما تعني بسؤالك..؟ ومع ذلك فقد كانت تعتريني لحظات أحس فيها ببغض هائل واحتقار لمكانتي منه، لكني رغم هذه اللحظات كنت على استعداد للإلقاء

بنفسي من النافذة إذا أمرني بذلك. لقد كنت أطيعه طاعة عمياء لأنه كان له فضل إنقاذي مرة".

لكن كامل ألقى عليها بسؤال مفاجئ بينما كان يضع سيجارة في مبسم، كمن مس من الكهرباء، في عصبية ظاهرة بعد أن سمع منها هذا الحديث.. "حسنًا يا نبيهة لكن ما رأيك فيَّ بعد يومين قضيتهما معنا؟".

ولم تحر الفتاة جوابًا فعاد هو يطلب منها الإجابة مقسمًا عليها أغلظ الأيمان، فقالت له همسًا وقد اصطبغت وجنتاها بحمرة الخجل: "سيدي ما دمت تسألني وتلح في السؤال عن شعوري وما أحسسته هنا فإليك ما أرى.. إنك يا سيدي تشبه صندوق نشوق صغير من الأبنوس مغلق ولا يمكن فتحه، لكنه محلًى من كل جوانبه بالجواهر الثمينة.. هي تحفة نادرة لكنها وقعت في يد متسول فقير ليس له خبرة بالنفس الإنسانية، إنه معجب بالصندوق ويرى فيه شيئًا عظيمًا لكنه لا يستطيع فتحه ولا تخيل ما يحويه بالداخل.

"بديع.. بديع جدًّا.. إنني أنا نفسي.. الصندوق المغلق أواجه نفس المشكل وأجدني عاجزًا عن إدراك فوائده".

وفجأة سقط المبسم مع السيجارة على السجادة الصغيرة عندما تحرك المحامي في مكانه دون قصد، وأسرعت الفتاة إلى التقاطه وتقديمه إلى المحامي، لكنه بدلًا من أن يأخذ المبسم في سلام أمسك

بالأصابع الرقيقة الممتدة نحوه وهمس: "اقتربي مني"، فارتبكت الفتاة وأخذت ترتعد من قمة الرأس إلى أخمص القدم وحاولت أن تقاوم قبضته، لكنها كانت تزداد تشبثًا بيدها وضغطًا عليها حتى ندت عنها صرخة خافتة ووجدت نفسها بين أمرين.. بين إغضابه أو مرضاته، وآثرت الأخير خوفًا مما تخبئه لها الحياة لو تمردت على هذا الوكر الذي آواها.. وزحفت على الأرض مقتربة من أرجل الكرسي لكنه عاد يهمس: "ليس هنا.. ليس هنا" ثم انحنى عليها وحملها بين يديه وأجلس ذلك القد الضامر فوق ركبتيه.

دهشت الفتاة للتطور غير المنتظر وازدادت الرعدة في أوصالها وارتفعت ضربات قلبها حتى خيل إليها أنه سيقفز من بين أضالعها، وغطت هي وجهها مجتهدة في إخفاء آلامها وأحست برغبة في الصياح، جعلت تقاومها وتتوسل إليه وقد أغمضت عينيها في استسلام الفأر المذعور للقط الغادر.

"سيدي.. سيدي ارحم ضعفي".

"نبيهة.. يا أيتها الحبيبة.. حيًا الله يوم رأيتك..".

كان كامل يهمس بهذه الكلمات وهو يطوقها بذراعيه ويضمها إلى صدره في نهم الجائع المسعور.. وحاولت نبيهة أن تفلت من بين يديه وقاومت ما استطاعت أن تقاوم لكنها كانت مقاومة فاشلة بين قوتين غير متعادلتين.. بل إن المقاومة قد زادت سعاره وأنسته

كل وقار وعقل وزادت جنون الشهوة بين جنبيه فاستجمع كل قوته وحملها بين ذراعيه وانطلق بها كما ينطلق الوحش بغنيمته إلى الأريكة التركية ذات الأغطية الحريرية..

لم يلحظ أحد على نبيهة أي تغيير بعد هذه العلاقة الجديدة.. بل استمرت تؤدي واجباتها كما كانت من قبل باذلة كل عنايتها في شئون المنزل، وعندما كان يتناول سيدها الطعام كانت تقف قريبًا من المائدة على استعداد لتلبية طلباته ثم تحضر له عقب الطعام القهوة وهي تمشي على استحياء ووجل كمألوف عادتها كما لم تغير مكان نومها في تلك الغرفة الصغيرة المجاورة للحمام.

ولعل التغيير الوحيد الذي طرأ أنها لم تعد تدعوه إذا خلا المكان لهما بسيدي بل "بحبيبي".. تنطلق من شفتيها في نغم عذب ورقة مستحبة.

لكنها بعد عدة أيام راجعت نفسها في أمر هذه الكلمة وظنت أنها بهذا النداء تتطاول على مقام سيدها تطاولًا غير لائق.

إن الأيام الآن مقبلة على كامل تسقيه كأس السعادة صرفًا وتمتعه بكل ما لم يحلم به من ضروب اللذة والهناء، وأخذ كامل يراجع آراءه في الحياة.. آراءه الجديدة التي اعتنقها في هذه الظروف الجديدة ويحاول أن يحل ألغاز الحياة وعلائق المجتمع على ضوء هذه الآراء لكنه كان يهرب من بحث النظريات المملة العقيم إلى الواقع السعيد..

إنها أبحاث لا طائل وراءها..

فمن المسلم به أن العلاقة بينه وبينها لم تكن علاقة الزوج طالما لم تترتب عليها التزامات قانونية كالتي تترتب على العقد الذي يقوم بصياغته المأذون الشرعي المتكفل بمراسيم الزواج القانونية.. بل ليس هناك أي ارتباط زوجي بينهما من أي نوع كان.

كما أنها ليست خليلته لأن الخليلة تكون عادة في مكانة أعلى من مكانة الخادم وأقرب إلى مرتبة الزوجة.. لكن هل من المعقول أن ترضى هذه الفتاة الصغيرة مع كل ما وهبها الله من كنوز الجمال بمرتبة الخادم الحقيرة؟ وهل من العدل أن يقابل كل ما حبته به من متاع وجمال وعطف ومحبة ورقة وتواضع.. وغير ذلك من ميزات كثيرة غزت قلبه واستأسرت بلبه.. هل من العدل ألا يجود عليها بأكثر من مكانة الخادم الذليلة؟!

قد كان كامل في لحظات يستجمع شتات أفكاره ويسائل نفسه: في أي وضع عادل سيكون مكان هذه الفتاة من حياته؟ لكنه لا يجرؤ أن يصارح نفسه بجواب معقول ينقذه من حيرته.

لقد كان سلوكها في تحسن مستمر ويشهد أنها لم تخطئ قط بل كانت تزداد إخلاصًا على مر الأيام وتزداد عنايتها به وبشئونه عناية لم تعد خافية على أحد.

ولقد سألها مرة أو مرتين عن ماضيها وما واجهته في حياتها من أحداث لكنها كانت تتخلص من الإجابة بلباقة وكأنها كانت ترى أن الوقت لم يحن بعد لتعترف له بكل شيء بينما كان يظن كامل أن ترددها في الحديث مرده إلى الحياء والخجل.

وذات مساء وكان البدر يحيط الكون بسحره الغامر وقد توسط كبد السماء يشارك العاشقين نجواهم ويستمع من البائسين إلى شكواهم.. جلس كامل في الشرفة البحرية كعادته وجلست نبيهة على السجادة الصغيرة عند قدميه وقد أخذا بسحر حديثهما فمالا على بعضهما، واستندت هي إلى ساقيه بجسمها البض الصغير ورفعت طرفها إلى القمر مأخوذة بجماله.. لكن كامل فجأة أخذ يربت على خدها بكفه ينبهها إلى حديث عام يريد أن يلقي به إليها فالتفتت إليه متسائلة فذكرها بوعدها المتكرر له بالحديث عن نفسها، فقالت له وقد امتقع لونها وتثلجت أطرافها واضطرب كيانها: "أمصرٌ أنت أيها الحبيب.. أمصرٌ على نبش هذا الماضي الأليم؟".

"أجل يا نبيهة.. أجل إنني في لهفة لمعرفة هذه القصة التي تهمني.. وسأساعدك.. على ذلك بتحريرك من الخوف والاضطراب؟".

وهبَّ كامل واقفًا ثم أطفأ النور الأحمر الضئيل المنبعث من داخل الغرفة، ثم عاد وجلس في ركن مظلم من الشرفة قائلًا: "أرأيت..؟ سأختفي هنا في الظلام.. فتشجعي وقُصِّي الحقيقة عما قاسيته في أعوامك القصار من آلام وأحداث دون تحوير أو تنميق".

لم يبقَ بعد ذلك سوى نور القمر الهادئ يرسل أشعته على الكون، بينما بدت الحقول أسفل الشرفة كبحر لا نهائي مظلم لا سيما بعد أن تعرت من كل أثر للحياة، إذ أن موسم الحصاد كان قد انتهى وقارب وقت الفيضان حين تعمر كل هذه الحقول بماء النيل، ولا يتم هذا إلا في أواخر الصيف بعد أن تكون كل المحاصيل قد جمعت ونقلت إلى أسواقها أو مخازن الفلاحين.

وكان صوت الضفادع الرتيب يطن في المكان في نغم كريه ثقيل على الآذان بينما أخذ صوت كلب يدوي في المكان من ناحية المدينة القديمة فيعكر صفو الليل الساكن.

لكن.. شيئًا من هذا لم يكن ليستحوذ على جزء من انتباه كامل الذي تحول بكليته إلى آذان صاغية ليستمع إلى اعتراف فتاته المسكينة.

واقتربت نبيهة من مكانها المألوف وأسندت ذراعها البض إلى ركبتي سيدها الكريم، ثم شرعت في الحديث بصوت هادئ وسرد بطيء كأنها تطالع أقصوصة تاريخية من قصص حكماء التاريخ وكان صوتها يخفت أحيانًا حتى ليحاكي الهمس، بينما تشرد نظراتها في صفحة السماء لكنها تبتسم فجأة ويرتفع صوتها قليلًا وهي تتأمل تلك الأوضاع الهندسية الجميلة التي تتكون منها نقوش السجادة العجمية الصغيرة الفاخرة المفروشة تحتها.

الاعتراف

لقـد تفتحـت عينـاي لأشـعة الشـمس ودفء الحيـاة في قريـة صـغيرة متواضعة تبعد مسافة خمس ساعات جنوبي أسيوط، ولا أكاد أذكـر شـيئًا عـن أبي الذي فقدته وأنا بعد طفلـة صـغيرة، لكنـي أذكـر جيـدًا أن أمـي لم تحـاول الزواج من بعده وقنعنا من الوجـود بقـروش قليلـة كانـت تكتسـبها بخياطـة الملابس للناس ورضينا من الحياة بالوحدة والابتعاد عن الناس ما أمكن، ولقـد عشت معها لا أعرف شيئًا عـن سـوآت الحيـاة وخـداع النـاس ونفـاق الرجـال ووحشيتهم، لأن أمي قد اعتادت _حرصًا منها عليَّ وخوفًا عـلى مسـتقبلي_ أن تبعدني عن المكان كلما حل به ذكور، فشببت لا أعرف معنًـى للمجتمـع.. بـل قد كانت تحرم عليَّ مجالسة الأطفال الذكور أو الجلوس إلى جوارهم في اللعب في الفرص النادرة التي تتاح لي بباب كوخنا الحقـير، لأن عـبء العمـل في هـذا الكوخ وقد وقع على عاتقي منـذ أن تفرغـت أمـي لعملهـا الشـاق المضـني في سبيل لقمة العيش.

ولقد مرت طفولتي في هدوء وسـلام ولم نفقـد خـلال أعوامهـا الطويلـة الأمل في مستقبل أكرم وحياة أسعد تشرق علينا في يوم ما..

لكن القـدر كـان يقـف لنـا بالمرصـاد لا يسـمح لنـا بتحقيـق حلـم مـن

أحلام سعادتنا وإذا بأمي تصبح مريضة ذات صباح شديد البرودة، ولا تستطيع الحراك أو مغادرة الفراش ولم يستطع الطبيب الذي استدعيناه أن يفعل شيئًا من أجلها ولم يمنع حبي وسهري وعنايتي بها نزول القدر المحظور، فلم ينقضِ أسبوع على مرضها حتى فارقتني أمي العزيزة غير آبهة بدموعي الغزيرة ولا توسلاتي المتصلة عند قدميها.

فارقتني وكان اسمى آخر ما هتفت به، وسعادتي آخر ما تمنته في دعائها وهي تسأل الله أن يتيح لي حياة أسعد من حياتها التي عاشتها في هذه الدنيا المخاتلة.

وهنا توقفت نبيهة قليلًا لتمسح دموعها التي انثالت على خديها غزيرة وحتى تهدأ أنفاسها التي اضطربت للذكرى ثم استأنفت الحديث بعد برهة قائلة:

لم أتصور خطورة موقفي في الحياة إلا بعد أن ووريت التراب ووجدت نفسي وحيدة في المسكن المنعزل القائم بمفرده.

لقد مكث العزاء بضع ساعات قلائل كان يحيطني فيها المعارف والأقارب من النساء وكذا بعض نساء للتعديد غريبات عن القرية، كن يطلقن صرخاتهن المريعة في المكان وقد لطخن وجوههن وملابسهن بالوحل ولا همَّ لهن إلا إثارة الحاضرات واستنهاضهن للبكاء والعويل لا العمل على العزاء وإدخال الطمأنينة إلى قلبي المحزون.

وخيـل إليَّ أن كـل امـرأة في المكـان أصـبحت تجتهـد أن ترفـع صـوتها بالعويل والصراخ إلى أقصى مداه بينما كانت النساء الغريبات يرددن مواويلهن الحزينة مرتلة على نغم رتيب من التصفيق بالأيدي.

لقد ثارت نفسي على فعالهن القبيحة ونفوسهن القاسية التي لا تـرحم، وصحت بهن ليخرجن من المكان وهاجت نفسي حتى خيل إليَّ أني أكـاد أجـن ولولا حيائي من الناس لقذفت بهن الواحدة إثر الأخرى إلى خارج البيت.

أخيرًا وجدت نفسي وحيدة وسنحت الفرصـة لي لأبـكي أمـي العزيـزة في سلام.. وأبكي نفسي وتعاستها لكن الواقع الأليم أخذ يهاجمني بقسوة..

من في الوجود سيقدم إليَّ العزاء الصـادق؟! ومـاذا يمكننـي أن أصـنع في هذه الدنيا بمفردي وقد هجرني الناس جميعًا ولا أجد من يحميني ويذود عني العوادي؟! ومن ذا الذي يُسمعني كلمـة عطـف أو حنـان أو مـودة؟! ومـن ذا الذي يسعى ليحمل عبء يتيم لا مال له؟!

لكن عندما تقدم الليل قليلًا لمحت شبحًا يسعى نحو البيت عرفت فيـه عمي عندما دخل إلى المنزل، وكان رجلًا قد قارب الخمسين من عمره.

هذا العم لم أره بعد وفاة أبي وطوال مدة حياة أمي من بعـده، لم يـأتِ إلينا يومًا ليسأل عن حالنا ولا عـن حاجتنـا ولـو مـن بـاب المجاملـة المحضـة،

وكان يمضي العام فلا أراه مرة في الطريق عرضًا وإذا رأى أمي صدفة أسمعها بعض عبارات الاعتذار التي يجيدها المنافقون أمثاله، وإذا ألحت عليه ليدخل البيت قَبِل الدعوة ومكث ريثما يشرب القهوة وهو يطري أمي ووفاءها لذكرى أخيه، وآية هذا الوفاء عدم تفكيرها في الزواج من بعده قط، ثم يختفي بعد شرب القهوة مباشرة دون أن يفكر في إعطاء هذه اليتيمة ابنة أخيه مليمًا لتشتري به لنفسها شيئًا وكأنها لا حق لها عليه.

لكنه في هذه المرة دخل البيت وقد ارتسمت على وجهه علامات حزن عميق وأخذ يعتذر عن تخلفه عن حضور الجنازة بغيابه في قرية بعيدة، وكنت أصغي لكلامه في صمت عميق لشكي في نواياه، لا سيما وقد كنت موقنة أن خيرًا لن يرجى منه، ولذا كم كانت دهشتي عجيبة أن أسمع منه بعد حوار قصير في نبرة كلها حنان ورقة: "يا بنتي ثقي بأني وزوجتي في منتهى الألم لمصابك الفظيع.. ونحن أقرباؤك أو نحن كل من بقي لك في هذه الدنيا، وواجب علينا أن نأخذك عندنا ونرعاك بأنفسنا.. إنك في هذا الشباب الباكر لا يمكن تركك وحيدة في هذا المسكن النائي المنعزل.. وفي الليالي الموحشة.. إن بيتنا مفتوح لك وليس هذا كرمًا بل هذا واجب مقدس علينا.. ومن يحمي عرض أخي سواي.. قومي وتعالي معي ولعل فرج ربك قريب".

قل لي بربك أيها العزيز.. هل كنت أستطيع أن أرفض هذا العرض؟! ومهما قيل في أمر عمي وثقل ظله.. إن في المجتمع ولا

شك أناسًا اشتهروا بثقل الظل وبشخصياتهم المنفرة ولو ملكوا كل مقدرة على البلاغة وحلو الحديث واجتهدوا في التودد إلى الناس..

لقد كان عمي من هذه الفئة من الناس رغم أنه عمي ويدعوني بابنته.. لكن لحيته البيضاء وعينيه الضيقتين الماكرتين وعمامته الضخمة ومركوبه الأحمر ومسبحته التي لا تفارق أصابعه أبدًا.. كل هذه كانت تخيفني وما كنت أستطيع أن أثق بكلماته لحظة، وما كانت شخصيته توحي إليَّ بأي لون من الاطمئنان لا سيما وقد كنت دائمًا أذكر موقفه من أمي بعد وفاه أخيه ومحاولته مرارًا الاستيلاء على هذا الكوخ الحقير وإلقاءنا إلى عرض الطريق بما له من حق في ميراث أبي.

لكنه اليوم يتقدم في كرم وشهامة يعرض عليَّ حمايته والمأوى.. ومع ذلك فقد رفضت في إباء وألححت في الرفض، إلا أنه ألح في الرجاء وتجمع في تلك اللحظة بعض الجيران وأنكروا موقفي وعاونوه على تحقيق أمره كما عاونه خوفي من الوحدة ومن المستقبل، فأسلمت أمري إلى الله ورضيت بالخروج معه بعد جدال طويل وحملت معي في قطعة خلقة من القماش ما أملك من ملابس قليلة وأغلقت الكوخ وأوصيت جارة لنا بمراقبته من وقت إلى آخر ثم تبعت عمي إلى الطرف الآخر من القرية..

ولقد لقيتني زوجته مرحبة فرحة بمقدمي مادة إليَّ كلتا ذراعيها، وكانت امرأة مريضة قد أصاب الشلل نصف جسمها ولا تستطيع

الحركة إلا برجل واحدة سليمة، ولذا كان معظم وقتها تقضيه في الفراش عاجزة عن الحركة وأصبح وجودي بالنسبة إليها بلسمًا وعزاء، ولا أخفيك أني بعد النظرة الأولى في أول لقاء شعرت بالعطف والحب نحو هذه المخلوقة البائسة التي تحيا حياة هي أقرب إلى الموت منها إلى الحياة، لأنها تحرمها من مشاركة الناس في كثير من أمورهم وتحرمها من مغادرة البيت والاختلاط بالناس.. أواه لقد ألَّف البؤس بين قلبينا.

وكانت هناك امرأة عجوز تأتي لطحن القمح وعجن العجين وخبز الخبز في فرن المنزل وغسل الملابس وإعداد الطعام.

لقد ظللت سبعة أيام أذهب في كل صباح إلى بيت أمي حيث يجتمع النسوة من أصدقائها ومعارفنا وغيرهن للعزاء والبكاء "والتعديد" كما هي العادة في قريتنا وكنت أعود إلى بيت عمي مع المساء.

ومن العجيب أن نحيبي لم يكن يعلو ودموعي لم تكن تنثال بغزارة إلا كلما مرت بمخيلتي صورة هذا العم العجيب، فقد كانت كفيلة بإشاعة الاضطراب في حياتي.. وكانت مواجهته مبعث جزع لي وكان عذابي يبلغ أقصى مداه عندما يتحسس جسدي ويربت على كتفي في حنان أبوي _كما يزعم_ حتى أوشك أن أصرخ أو أعدو هاربة من أمامه.

أخيرًا انتهت الجنازة والحـزن، وانصرف النسـوة والمـأجورات "للتعديـد" كما انسحب الأصدقاء والأقرباء، وطلبت مني زوج عمي أن أمكث معها طوال اليوم فلم أعارض وكنت أحب هذه السـيدة وأحترمهـا بقـدر مـا كنـت أبغـض عمي وأراه الشر مجسمًا، وكم كنت أشعر بالراحة في الأيام التـي يضـطره فيهـا عمله إلى التغيب بعيدًا عن القرية وأيام غيابه بالذات هي التي شجعتني على الاستجابة لرجائها.

وكانت زوج عمي كريمة معي إلى أبعد حدود الكرم والنبـل، بـل كانـت سيدة محبوبة من الجميع يتوق الكل إلى استماع حديثها والإصغاء إليها، وهي كانت صاحبة فضل على كل معارفها كما كان لها جلد على مصيبتها فلم تشـكُ إلى أحد قط ولم تظهر آلامها من حالتها الموئسـة لأحـد.. لم تكـن تـألم إلا لشيء واحد.. غريزة حرمت منها.. غريزة الأمومة العميقة في نفس كل أنثى.. فإذا مـا ذكر الأطفال أمامها تنهدت في حزن وعتاب على الأقدار التي حرمتها منها.

وبعد العشاء كنت أذهب للجلـوس معهـا والنـوم في حجرتهـا في الـدور العلوي على فراش بسيط من حشية واحدة إلى جوارها، أما عمـي فكـان عنـد عودته من السفر يجلس في المساء أمام باب المنـزل ليقابـل أصـدقاءه وعمـلاء تجارته المحرمة ولا يأوي إلى المنزل إلا في ساعة متـأخرة عنـدما يتحسـن الجـو فيصعد إلى سطح البيت لينام على فراش تعده له زوجه قبـل نومهـا في الهـواء الطلق.

وانقضى عليَّ شهران لم أحس خلالهما ملـلًا أو تبرمًا بحياتي الجديدة، وكنت أحيا خلالهما على ذكريات أمي العزيزة وأخيلة حبها وحنانها وبدأت بعد ذلك أشترك في كل أعمال المنزل بما فيها العجين وعمل الخبز في فرن المنزل، وأحيانًا كنت أساعد الخادم العجوز في حلب البقرة عند عودتها من الحقل مع المساء.. ومع كل هذا فقد كنت أقضي معظم ساعات اليوم إلى جوار زوجة عمي حيث أجد السلوى والعزاء وأستطيع الإفضاء بما يعتمل في صدري من آلام أو آمال.

أما عمي فقد التقيت به أثناء إقامتي مرات كثيرة منفردين، فكان في كل مرة يطيل معي الحديث ويبدي نحوي أرق عاطفة وأكرم شعور ويتحدث إليَّ في حنان بالغ وحدب عجيب.

ولقد عجبت ذات صبح أن لقيني في عصبية بادية وبدأ بدون مناسبة وفي اندفاع جنوني عجيب يحدثني _أنا الصبية التي لا تعي من أمور الدنيا كثيرًا_ عن شقائه وتعاسة حظه ويمتدح نفسه وصبره وكرمه زاعمًا أن أحدًا غيره ما كان يبقي على امرأة مشلولة لا خير فيها كل هذه المدة الطويلة، وأن أحدًا ما كان ليلومه لو أنه تزوج بأخرى صغيرة قوية شابة تدخل البهجة على قلبه وتضيء حياته المعتمة.

لقد أدركت أنه يظنني غبية أو جاهلة أو أنني لا أدرى أن سر احتفاظه بهذه المريضة وعدم طلاقها يرجع إلى ما تملك من أرض

تدر عليه مالًا لا إلى أريحيته وكرمه.. فتغابيت كما أراد اختصارًا للحديث معه الذي كنت أتحاشى أن يطول لئلا يتطرق بنا إلى أمور لا أحبها.. لكنه ظل يرقب فرصة أخرى مواتية لينفرد بي ويعيد على مسامعي شكواه وحزنه وسوء طالعه حتى قال: "ألا أستحق الزواج بصغيرة جميلة تشبهك مثلًا"، فأطرقت متظاهرة بالموافقة على حديثه وانصرفت مسرعة وأنا أعجب في نفسي لهذا العجوز الذي انحنى ظهره وبدت التجاعيد في أنحاء وجهه والذي أخذ جسده في التحلل والضعف وخطواته في الاختلال، والذي يقترب سريعًا من الفناء.. ولا تنسَ عينيه المحمرتين دائمًا اللتين تنطقان بالشر دائمًا وصوته الكئيب المرتفع الذي يشبه صراخ امرأة نائحة.. يتصور أن فتاة صغيرة تقبل أن تكون خليلة وأن تهبه الشباب وجمالها ليهبها هموم شيخوخته وسوآتها.. لكنه يا سيدى كان قد حسب سكوتي وعدًا له..

كان الصيف يكاد أن ينتصف وحرارة الجو تزداد يومًا بعد يوم، وأنا أحاول بجهود مضنية أن أؤخر الساعة المحتومة التي لا شك بعدها في تحرري من الحياة في كنف هذا العم الشرير إلى أن حلت المأساة التي غيرت مجرى حياتي وأنفذت المقدور عليَّ.

كان ذلك في الساعات الأولى بعد ظهر يوم شديد الحرارة وقد ذهبت الخادم العجوز إلى مطحن العزبة لطحن كمية من القمح، وكانت زوجة عمي ترتاح في حجرتها من حرارة الهاجرة وقد جلست

إلى جوراها مرتدية جلبابًا خفيفًا من وطأة الحرارة، وبيدي قطعة قماش أخيطها قميصًا لي ولمَّا كان عمي قد اعتاد في الأيام الأخيرة أن يقيل في الحجرة السفلى المخصصة لاستقبال الضيوف فقد قلت فرصة لقائي به منفردة.

وقد أتاحت لى الخياطة فرصة الاسترسال في أحلام داخلية عجيبة من تصورات الصبا وفجأة أحسست بعطش شديد، ولعلك تعلم أننا في الأرياف نحتفظ بقدر الماء في مثل هذا الجو الحار في الدور الأرضي حيث يحتفظ الهواء ببرودته فتظل مياه الشرب باردة مستساغة، وكان مكانها بالضبط إلى جوار مدخل تلك الحجرة المشئومة، وما إن بلغت أسفل الدرج حتى ترددت في المرور أمامها خشية أن يكون عمي غير نائم، لكن العطش وحرارة الجو غلباني على أمري وكنت حافية القدمين بردائي الخفيف على جسدي، فقد تحاشيت أن أحدث أي ضوضاء حتى أعود إلى مكاني سريعًا دون أن أقلق أحدًا.

مضيت سريعًا نحو جرة الماء، لكن قبل أن ألمسها سمعت صوته الكئيب: "يا بنتي يا نبيهة اسقيني بعض الماء لأن العطش يكاد يقتلني"، فالتفت فإذا به واقفًا بباب الغرفة يرمقني بعينيه الضيقتين وقد وضع سيجارة بين شفتيه تنبعث منها رائحة نفاذة عجيبة لا تشبه رائحة الدخان.

وانسحب إلى داخل الغرفة وسمعته يلقي بجسده على أريكة قديمة أنَّت تحت ثقله.. فوقفت حيرى لا أدري ماذا أفعل؟ أأعصاه أم أحني الرأس للعاصفة؟ ولعلك تعلم أيها الحبيب أن شجاعتي لا تخذلني قط..

بعد تفكير قصير صممت على سقياه وقد عزمت إذا ما مد إليَّ يدًا لتداعب جسدي في عطفه الأبوي الكاذب عليَّ أن أصيح فأوقظ كل من في البيت لنجدتي..

اطمأننت إلى هذا الرأي فحملت الماء وذهبت به إليه فوجدته جالسًا وقد وضع ساقًا على الأخرى وهو يضحك في عصبية بادية وقد امتلأ جو الحجرة برائحة هذا الشيء الذي يدخنه في سيجارة وتناول مني الكوز وشرب، ثم التفت إليَّ في عدم اكتراث قائلًا، وهو لا يزال ممسكًا بالكوز: "نبيهة أتشمين رائحة غريبة في هذه الغرفة؟"، وقهقه بصوت عالٍ وهو يميل برأسه على كتفه اليمنى فأجبته:

"أجل يا عماه ولا أدرس كيف تتحمل البقاء في هذا الجو.. إني أكاد أختنق ولم يمضِ على وجودي في الغرفة دقيقتان بينما رأسي أصابها الدوار".

"هل تتصورين يا بنتي مصدر هذه الرائحة العجيبة؟".

"أظنها السيجارة ولا شيء سواها".

"أحسبك قطعت نصف الطريق.. السيجارة مسئولة حقًا، لكن بعد أن اختلط دخانها بالحشيش العجيب".

حشيش؟! واتسعت حدقتا عيني وملأني العجب والرعب.. حقًا إن كلمة الحشيش ليست غريبة على سمعي، وطالما سمعت القصص عنه وعن أسراره العجيبة من صديقاتي ولو أنها قصص غامضة ينقصها الجلاء.. إلا أني لم أره في حياتي ولم أعرف كنهه.

وعاد الشيطان المتقمص روح عمي يحدثني في خبث: "ألم يستثِر الأمر اهتمامك وفضولك فتحاولي تجربته؟ تنفسي نفسًا واحدًا من هذه السيجارة وأرضي فضولك وغريزة حب الاستطلاع في نفسك.. لن يضايقك شيء بل بالعكس سيصفو ذهنك ويتفتح عقلك ويتخلص من كل الأفكار السيئة وستشعرين بالراحة والسرور طوال هذه الأمسية".

لم يكف طوال حديثه عن الضحك والقهقة في عصبية ظاهرة.. هذه القهقهة التي أبغضها.. ولك الآن أن تتخيل أو ترسم لنفسك الصورة التي تراها، إنما من جانبي أقرر لك أن الفضول كان دائمًا عدو المرأة الأول والصخرة التي تتحطم عليها حياتها..

أين اختفت مخاوفي؟ وأين ذهبت شكوكي في نوايا ذلك القرد العجوز؟ أين راحت حصافتي ورجاحة عقلي وبعد نظري؟ ألم تكن نظراته النهمة الشيطانية التي كانت تلتهم جسدي شبه العاري

من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي كافية لإقناعي بنواياه الشريرة أو فضحها لنظري؟ كلا.. كلا.. لم أبصر شيئًا من هذا ولا عواقبه بل لم يفكر رأسي الذي أصابته رائحة الحشيش بالدوار في شيء على الإطلاق بل حصنت نفسي بفكرة واحدة.. أن نفسًا واحدًا من هذا المخدر الساحر لن يكون له تأثير كبير أو خطير وأقنعت نفسي بأن في استطاعتي الانسحاب إلى غرفة عمتي في الوقت المناسب، وعندما ألمح أي نية أو شروع في العدوان.

وعلى ذلك فقد هدأت مخاوفي لحظة وتقدمت إلى اليد الممتدة إليَّ وتناولت السيجارة، وفي جهل وعدم خبرة جذبت منها نفسًا طويلًا بعد أن أطبقت عليها بشفتيَّ في قوة، فزاد في قهقهته وهو يرقبني بينما كان الدوار يزداد في رأسي، وبدأت بعد لحظات أفقد توازني ووجدتني على وشك الإغماء وكدت أسقط على الأرض، لكن يدين طوقتاني ورفعتاني قليلًا ثم أحسست بشخص يرقدني على أريكة، ومضت بعد ذلك لحظات شعرت فيها بضيق شديد وأنا أناضل عبثًا لأخلص نفسي أو لأظفر بهواء نقي وكان دخان الحشيش يزداد كثافة حولي وكأن شخصًا يدفعه دفعًا متواصلًا إلى خياشيمي.

وأعقب ذلك نوم ثقيل وأحلام عجيبة.. لقد رأيت طائرًا ضخمًا لعله النسر ينقض عليَّ بمخالبه ويحملني إلى قصر بلوري في مكان بعيد.. وعندما دخل القصر أرقدني على سرير مطلي بالذهب وبعد

فترة من الوقت لاحظت بعينيَّ نصف المغمضتين أميرًا يـدخل إلى المكـان وقـد ارتدى الحرير وتدلت حول عنقه كوفية من الحرير الخالص، وقد أضـاء وجهـه بهالة من النور كالشمس في وضح النهار، وعندما حـاذى سريـري بـدأ يتحـدث إليَّ حديثًا يلتهب حبًّا وغرامًـا جعـل جسـدي يرتعـد رعـدة الاشـتهاء.. لكـن لم يتوقف عن حديثه العذب بل أخذ يداعب جسـدي _الـذي كـان ينـتفض بـين يديه عضوًا عضوًا_ مداعبة رقيقة لطيفة وشعرت بخدر لذيـذ وسـعادة لا حـدَّ لها حتى أني نسيت ما يجب.. ثم انحنى عليَّ وقبلني قبلـة أطفـأ بهـا الـلـهـب المتأجج على شفتيَّ..

وكم كان رعبي وفزعي عندما تفتحـت عينـاي فلـم أرَ أمـيري، بـل كـان هناك عمي يحاول أن يعتصر شفتيَّ وشبابي بكل ما أبقـت لـه شـيخوخته مـن قوة وقد وجدتني عاجزة تمامًا عن المقاومة بعد أن أفقـدني المخـدر كـل قـوة، فاستسلمت لقبلاته ثم وجدتني أغمض عيني ثانيـة ويقبـل عـليَّ الأمـير.. أواه لقد كان من العبث أن أميز وقتئذ بين الحقيقة والخيال والرؤى حتى خيل إليَّ أنهما ربما كانا شخصين يسعيان إلى هدف واحد.. هـو التمتـع الـدنس بعـذراء بائسة.

وافقت على الحقيقة المرة.. لقد فقدت منذ تلك الساعة أعـز مـا يشرف العذراء ويجعلها ترفع رأسها بين الناس.. بينما المجـرم لم يبـدُ عليـه أي تـأثر أو إحساس بفداحة ما ارتكب في حق أخيه وشرف أخيه.

وعندما أفقت وتنبهت إلى ما حولي وجدتني أرقد إلى جوار زوجة عمي بينما كانت الخادم تدلك وجهي بالخل وكانت حرارة الحمَّى تنبعث من جميع أنحاء جسدي.

ورغم الصداع الشديد فقد تذكرت منظر الغرفة السفلي للبيت وانهمرت الدموع غزيرة من عيني عندما مر بمخليتي تفصيل ما جرى هناك وقد حاولت المرأتان عبثًا تستوضحاني سر حزني المفاجئ ومرضي، لأني آثرت الصمت وكتمان الأمر بينما راحت تتجمع في رأسي فكرة جديدة عن الهرب..

لقد كان يجب عليَّ أن أترك فورًا هذا المنزل الذي لا أرى في سيده سوى كابوس مخيف وشيطان رجيم يتهدد حياتي ومستقبلي..

لكني بقيت طريحة الفراش أسيرة المرض ثلاثة أيام متوالية لم أبح خلالها بشيء عن مأساتي الأليمة وكان الوحش لا يجرؤ خلالها على الظهور أمامي أو الاقتراب من الغرفة، وكانت دموعي وآلامي تتضاعف مع غروب الشمس وتمضي ساعات الليل طويلات لا ينتهين، أرتعد خلالها لأي صوت أو حفيف ورقة خشية أن أرى جلادي ثانية يقف بالباب أو يحاول تعذيبي بمحضره.

وفي الليلة الرابعة قرب بزوغ الفجر نهضت من فراشي وقد أحسست أن وطأة الحمى قد خفت فجمعت ملابسي الداخلية القليلة في خرقة قديمة وفي هدوء وعزم _والجميع نيام لا يشكُّون

في شيء من نواياي_ خرجت إلى الطريق دون أن يلحظني أحد أحث الخطى تجاه محطة السكة الحديدية، لم يرهبني الظلام ولا الوحدة ولا المصير المجهول الذي كنت أسير إليه بل كان الأمر على العكس، إذ أن أنسام الصباح الباردة جعلتني أشد تنبها لشأني وأحسست بشراسة تستبد بتفكيري وعزيمة صارمة تنبعث من أعماق نفسي.

بعد لحظات قصيرة من المشي سمعت صوت قطار يصل إلى المحطة فعدوت بسرعة حتى لحقت به قبل القيام، وألقيت بنفسي في أقرب عربة من عرباته دون اهتمام لما يأتي بعد ذلك.

ووقفت برهة حائرة لا أدري أين أجلس.. ولم تطل بي الحيرة، إذ أقبل عليَّ كمساري القطار يسألني عن تذكرتي فنظرت إليه نظرة بلهاء لا معنى لها ولم يسعفني عقلي بكلمة أجيب بها على سؤاله فانفجر الرجل في وجهي مهددًا:

"ما لك لا تجيبين.. أتسخرين مني، إذا لم يكن معك واحدة فستدفعين الأجر مضاعفًا"، فوضعت يدي في جيبي الفارغ بحركة لا إرادية وأعدتها سريعًا وكأنما كنت نسيت الحقيقة المرة وقفزت الدموع إلى عيني وأنا أقول له: "يا سيدي ليس معي نقود".

"ولماذا تركبين في القطار إذن؟ أحسبت أن في الإمكان استغفال الحكومة؟! حسنًا سأسلمك للبوليس في المحطة القادمة".

وأجلسني في آخر مقاعد العربة ريثما ينتهي من عمله ويعـود إليَّ عنـد وقوف القطار وكان ضوء النهار قد بدأ عندئذ يغمر الكون.

كان خليقًا بإنسانة بائسة مثلي أن تمضي الرحلة في بكاء متصل ولا أنكـر أني كنت أشعر بالحزن ويخيم عليَّ شعاع من الكآبة، لكني كنت محصنة بدرع الشباب، والشباب كما تعلم يمتاز عادة بالاستهانة بالمخـاطر وكـان إلى جـواري نافذة مفتوحة أغرتني بالتطلع إلى الكون فيما حولي حتى خيـل إليَّ أني نسـيت تعاستي لحظة، وما ينتظرني مـن مـآسٍ بعـد قليـل، فملـت إلى حافـة النافـذة وأخذت أتأمـل المنـاظر التـي يمـر القطـار في وسـطها.. وكانـت حقـولًا واسـعة وفلاحين مجدين وقد احترقت جلودهم تحت وهج الشمس وهم منتشرون في كل مكان، بينـما الأبقـار والجـمال والمـاعز قـد علقـت عـلى الكـلأ تأكـل منـه، والكلاب واقفة في حراستها ساكنة آنًا، وآنًـا تنـبح كلـما أحسـت بشـبح غريـب مقبل أو هي تجري في فرح وسرور عنـدما تلمـح سـيدها مقـبلًا عـلى الحقـل، تحتفي بمقدمه وكأنما تزهو أمامه بيقظتها وقيامها بما فرض عليهـا مـن واجـب على خير وجه وفي حقول أخرى كنت ألمح النساء والفتيات والأطفال يجلسـون في عشش غير مسقوفة من القـش وقـد انهمـك الجميـع في الحـديث واللـهو واللعب لا يثقل قلوبهم هم ولا حزن..

هل تدري كم كنت أحسدهم يومئذ؟!

وعلى فكرة لم أكن قد سافرت في القطار من قبل، وعلى ذلك فقد استغرقت انتباهي وأنستني همومي وأحزاني أحوال هذه المركبة العجيبة من سرعة فائقة إلى صفير يرتفع بين وقت وآخر يشق الفضاء، إلى دخان ينبعث فجأة كثيفًا فيحجب عنا ضوء النهار إلى جانب تلك المناظر الجميلة المتغيرة التي مررت بها والتي أرضت فضولي وأنستني تمامًا حرج الموقف الذي أنا فيه، حتى أصبحت كأحد هؤلاء الأطفال المشردين الذين يملئون الشوارع في المدن ولا همَّ لهم في الحياة ولا عمل والذين يقطعون يومهم في اللعب واثقين أن الظهر سيأتي ومعه الكريم الذي يتكفل لهم بالغذاء والشراب.

لقد كانت الرحلة بالنسبة إليَّ بعد انصراف الكمساري عني كحلم جميل، كم من الزمن تدوم الأحلام؟!

لقد أغرقت في الضحك عندما رأيت كلبًا يندفع نحو القطار في سرعة جنونية وهو ينبح محاولًا اللحاق به، كأنه يطارد عدوًّا رهيبًا، وفجأة طرق أذني صوت خشن حطم تصور أحلامي وهو يقول: "أنت الجالسة هناك.. اتبعيني" وكان القطار يقترب من إحدى المحطات ولم يلبث إلا قليلًا حتى توقف عن المسير وكان على النازلين أن يسرعوا حاملين متاعهم ليغادروا القطار، بينما لا يبالي الصاعدون بمزاحمتهم ليصعدوا أولًا ومعهم أمتعتهم أيضًا.. كان من النادر ألا ترى مسافرًا وليس في يده شيء يحمله.

وسرت خلف الكمساري وقد وضعت حملي الصغير تحت إبطي وأنا أحاول أن أمسح عبرة انحدرت على خدي كان قد لحظها، فقال وهو ينظر إلى الواقفين أمامه: "لا يغرنكم هذه الدموع.. إن هاتيك الغجريات يُجدن ذرفها عند اللزوم"، ثم اتجه إلى ناظر المحطة الذي أسرع للقائه وسلمني له مع ورقة زرقاء.

آلمني أن يظنني الناس غجرية من هؤلاء النسوة اللائي يجُبْنَ البلاد، لا وطن ولا أهل لهم، وبدا لي هذا الوصف إهانة مذلة لكرامتي فامتلأت عيناي بالدموع وعندما سئلت بعد ذلك، لم أستطع الإجابة إلا من بين التنهدات والشهقات والدموع.

رحل القطار سريعًا لكن قبل أن يختفي عن ناظري كان قد حضر أحد رجال البوليس واقتادني إلى مقر البوليس الذي قطعت الطريق إليه في بكاء متواصل مؤلم، يعذبني الخوف ويرهبني ما أتخيله من عذاب متوقع.

وفي مقر البوليس لاحظت نشاطًا وحيوية فالخفراء والجنود يروحون ويغدون وقد حملوا بنادقهم اللامعة والخيل قد نظفت أسرجتها وطليت بينما وقفت هي تضرب الأرض بحوافرها، ويرتفع صهيلها كأنها تستعجل الخروج والحركة، وكان هناك شخصية يحتفي بها الجميع وقد أحاط بها بعض السادة يجوبون أنحاء المكان بينما خيم على كل من بالمركز السكون والوقار.

وقفنا في فناء المبنى ننتظر دورنا فوجدت الناس يتهامسون حولي ذاكرين اسم "حسين بك" ويشيرون إلى شخص مقبل آخر يناديه: "حضرة القائمقام"، وآخر يقول له: "اتفضل يا حضرة الحكمدار"، فأيقنت أن مثل هذا الشخص الذي يتمتع بكل هذه الألقاب لا بد وأن يكون بطل هذه الحركة غير العادية، لكني لم أجرؤ على الحديث بما يدور في نفسي لأحد.

بعد فترة طويلة من الوقت حضر شخص ونادى حارسي وأمره بمرافقتي إلى الطابق الثاني من المبنى، فمررنا هناك ببهو عارٍ من كل أثاث، قد وقف في أنحائه بعض الضباط والموظفين والأعيان إلى أن وصلنا إلى باب غرفة مغلقة فقرع الجندي الباب بحذر وخفة ووقف لحظة حتى سمع الإذن بالدخول، ففتح الباب في رفق بيده اليمنى، بينما دفعني أمامه بيده اليسرى وهو يهمس بعبارة "ادخلي يا امرأة" فوجدتني وسط حجرة مؤثثة بأثاث فاخر، كراسي من الجلد وأريكة متسعة كبيرة وسجاد ذي رسمين بالزيت وصورة شمسية كبيرة معلقة على الحائط، وفى أحد الأركان جلس خلف مكتب فاخر ضابط جميل المحيا لكنه رزين وقور وقد بدت عيناه الزرقاوان من خلف نظارته تفيضان رقة وحنانًا.. لقد كان جذابًا في كل مظاهره عدا الصرامة التي كان يصطنعها لنفسه..

وقد جلس إلى جواره "أفندي" غليظ الجثة لا يخطئ الإنسان في معرفة قدره الصغير بالنسبة إلى الآخر رغم ما يتكلفه من عبوس، وقد نبئت بعد ذلك أن هذا "الأفندي" هو مأمور المركز.

نظر المأمور إليَّ عند دخولي الغرفة بينما استمر الآخر مطرقًا يقلب في بعض الأوراق أمامه ولم يحاول حتى الرد على التحية العسكرية التي أدَّاها له الجندي المرافق لي ولمَّا فرغ من عمله رفع رأسه وكأنه لم يلحظ دخولنا الغرفة إلا في تلك الساعة، وسأل الجندي في جد: "ماذا حدث؟".

"لقد سلم القطار رقم 38 هذه المرأة للمحطة وكانت مسافرة بغير تذكرة".

"ولماذا أيتها الفتاة تخالفين القوانين".

فانفجرت باكية ولا شك أنه لم يكن هناك ملجأ لي غير البكاء والنحيب.. فنهرني وسألني عن اسم بلدتي فأجبته من بين شهقاتي فابتسم وهو يقول: "لكن إلى أين كنت ذاهبة لو فرضنا أن الكمساري تركك تركبين بدون تذكرة؟".

"لا أدرى..".

"يا بنتي قولي لنا الحقيقة وإلا نالك عقاب شديد فلا تكوني حمقاء وساعدينا لنساعدك".

لم أفهم ماذا يعني بكلماته تلك ووجدتني دون قصد أنزل يدي من فوق عيني وأنظر إليه بوجه قد غمرته الدموع فتلاقت منا النظرات ولم أستطع أمام جمال نظراته الفاتنة إلا أن أخفض بصري سريعًا وشعرت

باطمئنان بين يديه وأحسست كأن آلامي تتبخر وقلبي يتخفف من أعباء أحزاني وكنت كلما اختلست النظر إليه شعرت بالرغبة في الكلام.

لقد كانت جاذبيته قوية نفاذة طغت على صرامته وجده فصممت على التحدث إليه كما لو كان مبعوثًا من عند الله لحمايتي، وأملت خيرًا على يديه فقلت له: "سيدي البك إني يتيمة الأب والأم.. وحيدة في هذا العالم تعسة الحظ.. لا أهل لي ولا قريب يحميني ولقد ركبت القطار وأنا أدعو الله أن يرشدني إلى حياة كريمة أو يوفقني في أي مكان إلى عمل شريف أكتسب منه قوتي، ولمَّا كانت وفاة والدتي قريبة وقد أثرت على حياتي أثرًا كبيرًا حتى أصبحت في حيرة لا أدري من أمري شيئًا فلم أذكر عندما لحقت بالقطار أن السفر بالمجان ممنوع ولم أنتبه إلى خطئي إلا عند حضور الكمساري".

أرأيت أيها العزيز؟! لم أستطع أن أذكر له الحقيقة كاملة ولا ما حدث لي في القرية خشية ما يترتب على مثل هذا الاعتراف، لأني كنت أود الذهاب بعيدًا عن تلك القرية وعن جلادي الذي يعيش فيها..

وما إن انتهيت من حديثي حتى عاودتني نوبة البكاء بشدة وانقضت فترة من الصمت غير قصيرة نهض بعدها الضابط فجأة من مكانه واقترب مني ثم أنزل ذراعي التي تخفي وجهي بيده القوية، وأخذ يتأملني بنظراته ثم قال وقد بدا عليه نوع من الاطمئنان والرضا بما رأى: "حسنًا سننظر في أمر مخالفتك هذه فيما بعد، أما الآن فطالما

أنت تبحثين عن عمل فسأعرض عليك ما تطلبين.. هل تقبلين العمل في بيتي؟ ليس هناك عمل كثير ولا يوجد لنا أطفال وتأكدي أن زوجي طيبة القلب"، فرفعت بصري إليه مدهوشة.. لقد أسرني بجماله وطوق عنقي بصنيعه ووجدتني لفرط فرحتي لا أجد الكلمات التي أعبر بها عن شكري ولم أرَ تعبيرًا أبلغ عن شعوري من أن أختطف يده فأقبلها.. قد كان عرضه أفضل حل للمأزق الذي كنت فيه.

لم يسألني حسين بك إيضاحًا لمشكلتي أكثر من ذلك بل نادى المراسلة الخاص به وأمره أن يصطحبني إلى مأواي الجديد وأن يسدد ديني لمحطة السكة الحديدية.

فلهذه الظروف أنا مدينة بمعرفتي للقائمقام حسين بك حكمدار البوليس في المديرية، والذي كان في ذلك اليوم يقوم بجولة تفتيشية في تلك النقطة البعيدة من نقط بوليس مديرية أسيوط عندما دفعت بي يد القدر إليها.

وفي نفس اليوم وطئت قدماي مسكنه الأنيق ذي الأثاث الفاخر في عاصمة الإقليم.. أسيوط، ولقد منحت ملابس جميلة بعد أن أدخلت إلى حمام المنزل.. لقد كانت ملابس غالية جدًّا فوق ما كان يتصوره خيالي يومئذ بالنسبة إلى خادم مثلي.

لم أكن أتصور أن يتحول الحظ بهذه السرعة العجيبة ويعطيني أكثر مما أستحق ولقد كانت حيرتي تزداد إزاء الكرم والعطف الذي لقيته من كل من في المنزل.

لم يكن من الممكن رغم الفقر المدقع أن أعمل خارج بيتي وقت حياة والدتي لأن ذلك كان يعتبر جرحًا بالغًا لكرامتها وامتهانًا لعزة نفسها، لكن الآن لسوء الحظ قد انتقلت إلى الدار الأخرى وأصبحت لا تستطيع الاعتراض على عملي في هذه الحياة الدنيا الذي اضطررت إليه.

لقد تأقلمت سريعًا وأخذت نفسي بأسباب الحياة الجديدة التي فرض عليَّ أن أحياها ولقد كانت سيدتي أنيقة الملبس فسراويلها من الحرير الخالص والقطيفة الغالية، وهي من أسرة كريمة المحتد عريقة النسب، متعلمة تعليمًا راقيًا ولقد رحبت بي أكرم ترحيب واكتسبت محبتي من اليوم الأول لما أظهرته نحوي من عطف الأمومة والمعاملة الطيبة، ولمَّا أظهرتها على بعض آلامي وأحزاني أخذت تلاطفني وتواسيني كما اكتسبت ثقتها بي في سهولة ويسر لما امتازت به من صفاء النفس وبساطة الشخصية.

ولقد لاحظت من اليوم الأول فتور العلاقة بين سيدي وسيدتي، فوجبات الطعام كانت تقدم غالبًا بغير وجود السيد، وإذا صادف وجوده فإن الطعام لا يستغرق إلا دقائق معدودة تمضي في صمت ودون أن يتبادلا حديثًا، أما العشاء فلم يكن يحضره أبدًا بحجة ظروف العمل التي تجعل من المستحيل عليه مغادرة المكتب قبل منتصف الليل.

لم أتبين بالضبط مقدار الهوة التي تفصل بينهما ولم أستطع أن أتبين بادئ الأمر ذلك الخيط الواهي الرفيع الذي يشد هذين الزوجين

المتنافرين بعضهما إلى بعض، بل كل ما أدركت أن كـلًّا مـنهما يـتربص اللحظـة المناسبة التي يستطيع فيها فكاكًا من أسره.

ولقد وجدت السيدة في صحبتي متنفسًا لما ينـوء بـه قلبهـا مـن أحـزان وآلام وكنت أحـار وأجهـد عقـلي في التفكـير في مشـاكلها التـي تـفضي بهـا إليَّ، وأحاديثها عن لياليها السود وأيامها المثقلة بالهموم ومئات الحـوادث المخجلـة التي يرتكبها زوجها الأرعن والتي كانت تحيل حياتها إلى جحـيم مـن العـذاب المتصل.. ولطالما سمعتها تقول: "وهكذا يا نبيهة تمضي أيامي في البؤس والشقاء وتنقضي أعوامي في العذاب مع هذا الرجل الذي قدر عليَّ الـلـه وأهلي الاقتران به.. إنه يتحاشاني أنا زوجته أمام الـلـه والناس ويلقي بنفسه في غير حيـاء بـين أحضان الأجنبيات والحقيرات.. إنه معتوه.. إنه لا يجد المتعة إلا في كل ما حرم الـلـه.. إنني مسكينة يا نبيهة.. بل تعسة لا أمل لها".

لقد كنت أمام هذه الاعترافـات تـذوب نـفسي حسرات ولا أسـتطيع أن أمنع دموعي من الانهمار رغم أني كنت أحاول جاهـدة أن أهـدئ مـن روعهـا وأن أسرِّي عنها ما استطعت.

ولقد كان الحكمدار مشهودًا له بالكفاءة والنزاهة في عملـه، لكنـه كـان مشهورًا بنقصه الكبير في حياتـه الخاصـة وهـو الضـعف المتنـاهي أمـام إغـراء المرأة..

وإني أعترف رغم كل شيء بأن مصدر كل الشرور الموجودة في هذا العالم وما يحل بالناس من نكبات.. هو المرأة، إنها الحقيقة التي لا سبيل إلى نكرانها.

من النادر التغلب على العاطفة الجنسية كما أن النفوس الحاقدة دائمًا تتربص بالناس وما إن تقع على فضيحة حتى تذيعها في العالمين بسرعة مذهلة، مع الحواشي الخيالية المناسبة والتي تعتمد على إثارة الشعور فلا عجب إذا كان الأمر كذلك، أن كل قصة تصل إلى آذان سيدتي عن حوادث زوجها تروعها وتصيبها بهم مقيم.

حقيقة أنها بدينة وبدينة جدًّا بدرجة منفرة، وإذا أضفنا إلى ذلك ثلاثة عشر عامًا من الحياة الزوجية دون أن تنجب أطفالًا فلعلك تلتمس عذرًا لذلك الجندي الشجاع وتنكره لها رغم أنها ولا شك لا ذنب لها في قصور الطبيعة التي حرمتها الولد.

كانت صداقتنا تقوى على مرور الأيام وكنت أعمل دائمًا على رفع روحها المعنوية والتقليل في نظرها من شأن أخطاء زوجها التي كانت لا تنقطع ولا ترجى لها نهاية.. حتى لم تعد لديَّ فرصة للتفكير في أحزاني الخاصة أو شئوني، ولقد أصبحت أجد لذة في انقطاعي لشئون سيدتي والنظر في مشاكلها وازداد تعلقي بها واقترابي منها حتى ليخيل أني عشت حياتي بين جدران ذاك المنزل.

لكن متى خلت الحياة من أخطاء؟ ومتى سارت الدنيا في اتجاه واحد مستقيم؟!

لقد كانت في نفس الوقت الذي أصغي فيه لاعترافات سيدتي روح خبيثة تثور في نفسي وتزداد ثورتها على مر الأيام وتعذبني بأفكار وقحة وخطط عجيبة تؤدي بي إلى علاقة غريبة وعاطفة لا أستطيع تحديد كنهها..

ولأحدثك حديثًا أكثر صراحة.. منذ تلك اللحظة الحرجة في حياتي عندما كنت في نقطة البوليس وتقدم مني حسين بك، وأنزل يدي التي أخفيت بها وجهي الباكي وأخذ يتأمل شكلي ومظهري ثم تلاقت نظراتنا لحظات وأصبحت بعدها أعيش في أخيلة عجيبة وأخذت أحس بميل عجيب نحوه تحول إلى عاطفة غامضة، وتعلق شديد ترجمت عنهما بإخلاص صامت عميق في خدمة ذلك الرجل الساحر.

وبتوالي اعترافات سيدتي وشكاواها يومًا بعد يوم، كانت عواطفي تزداد اضطرابًا وتعتري تفكيري حيرة متزايدة لا سيما أن الحكمدار كان لا يني يبدي عطفًا شديدًا وحدبًا عليَّ.

على أية حال لم تغير الظروف مما كان يجري في رأسي من أفكار خبيثة وكان يخيل إليَّ أن الحكمدار ينظر إليَّ نظرة تخالف ما تهجس به خواطري.. لعله كان يعطف عليَّ لما لمسه من بؤسي أو يرثي لإنسانيتي المضيعة.

أما سيدتي فكانت يقظة _ولو أنها لم تشك في الأمر_ لسير الأمور فما كانت تدع فرصة للعدو ليعمل، ومع ذلك فقد كانت النيران كامنة

تحت الرماد.. تداعب خيالي دائمًا إلا أني كنت دائمًا أغلِّب ناحية الواجب الـذي يحتم عليَّ ألا أخلق اضطرابًا في البيت الكريم الذي منحني المأوى والذي كانت تعصف به الأنواء والرياح التي تهـب عليـه مـن الخـارج فـما أحـراه أن يـنعم بسلام جزئي في الداخل.. كما أني في نفس الوقت كنت أحسب ألف حسـاب لمـا سيلحقني من عار وخزي لو ألقي بي إلى عرض الطريق إذا ما اكتشفت زلـة لي في وقتها..

لقد كان هذا الصراع العنيف الذي يثور بين جوانحي كفيلًا بأن يجعلني مرهفة الشعور وأجتهد دائمًا ألا أتواجد مع سيدي منفردينِ أما إذا أقبل الليـل فـإني كنـت أنطلـق إلى حجـرتي وأغلـق عـليَّ البـاب بعيـدًا عـن أعـين الرقبـاء والحاسدين وأطلق لدموعي العنان لاعنـةً حظـي الـتعس الـذي ألقـى بي مـرة ثانية في مثل هذا الجحيم من العذاب المقيم.

صادفتني بعد ذلك أيام عصيبة فسيدتي تزداد يأسًا من حال زوجها التي لا تتحسن أبدًا، وتزداد شقوة وتكثر شـكاتها التـي تـنغص عـليَّ وجـودي بيـنما هواجسي أصبحت من ناحية أخرى عاطفة متأججة لا أجد لها علاجًـا.. أمـا مـا يخبئه لنا القدر جميعًا فلم يكن يعلمه إلا هو.

وذات يـوم أمـرت أن أحضر الإفطـار فحملـت "صـينية" عليهـا طعـام خفيــف إلى حجــرة الحكمــدار دون أن يخــالجني في الأمــر شــك وكانــت حجرتــه تقــع إلى جــوار حجــرة ســيدتي، ولقــد وجدتــه لدهشــتي

يذرع الغرفة بمفرده ذهابًا وإيابًا يتمتم بأغنية شعبية فقلت له: "سعدت صباحًا يا سيدي البك".

"أسعد الله صباحك".

قالها وقد أشرق وجهه بابتسامة جذابة ثم التف حولي بسرعة عجيبة وأمسكني من الخلف قبل أن أضع الصينية في مكانها وطوقني بذراعيه بشدة، ثم أمسك برأسي بين يديه وانهال على شفتيَّ ووجنتيَّ تقبيلًا وهو لا ينقطع عن الهمس في أذني: "هس هس".

لا أستطيع أن أصف لك شعوري في ذلك اليوم وبعد هذا الاعتداء غير المنتظر، وكل ما أذكره أني كنت أشعر بنوع من الحمى تجتاح جسدي ولهيبها ينبعث من جميع أطرافي وكنت أسير في شبه غيبوبة حتى سقط من يدي إصيص نادر المثال، فسألتني سيدتي: "ماذا أصابك يا بنيتي؟".. هذا السؤال الذي رددته عشرات المرات على مسمعي في ذلك اليوم دون أن تسمع مني جوابًا ودون أن تحار له علة ودون أن يخالجها في أمري أدنى شك، ولو أنها عرفت السبب لروعها وأزعجها أكثر من كل ما عرفت عن زوجها من قبل.

لقد حلق بي الخيال في السموات العلى لكن ضميري كان يثقله هم كبير.. كنت أريد أن أضحك وأغني وأمرح، لكن في نفس الوقت كانت هناك دمعة حائرة بين مقلتي.. نشدت الوحدة لعلي أستطيع التفكير والتأمل، لكن تشاء الصدف أن يقبل الضيوف علينا جماعات في ذلك اليوم وهكذا لا يكف القدر أبدًا عن عبثه بالآدميين وأحلامهم.

بعد بضعة أيام أصيبت سيدتي ببرد ألزمها الفراش..

وفي ليلة حالكة الظلام وقد خيم السكون العميق على المنزل كان القدر يرسم الخطوط الرئيسية للمأساة..

كنت لا أزال يقظى وقد أعلنت الساعة انتصاف الليل منذ وقت بعيد لكن النوم يأبى أن يزور عيني وقد رقدت في سرير بملابس خفيفة شبه عارية أدعو النوم، لكن كان يذبه عن عيني حر شديد ورطوبة كثيفة في الجو تجعله خانقًا مؤلمًا وأفكار تعذبني وتحيل نومي المنشود إلى يقظة كاملة.. ولدهشتي البالغة وجدت باب الحجرة يفتح ببطء.. لم أرتع للأمر ولم يخالجني شعور بالخوف أو توقع الشر بل بقيت هادئة ساكنة أرتقب ما سيحدث، فظهر على عتبة الباب شبح رجل أعرفه جيدًا ووقف برهة في صمت ودون حركة ثم تقدم في حذر نحو مرقدي ودون أن يضيع لحظة من الوقت _وهو يحسبني نائمة_ جلس إلى جواري وأخذ يداعب جسدي في رفق وحذر بادئ الأمر ثم ازدادت دغدغته شدة وقوة كلما هاجت أحاسيسه، وأتبع ذلك بقبل حارة وحشية طويلة لا تكاد تنتهي.. لم يبقَ في جسدي مكان سلم من مداعبته أو الاستجابة لنزوته.

لا شك أنك أدركت من هو المعتدي عليَّ في تلك الليلة ولعلك تلتمس لي عذرًا إن قلت لك إني تظاهرت بالنوم حتى أتيح له أن يرتكب حماقته.. أم تراك تتهم ضعفي وتشك في دعواي؟!

على أية حال إنى أقص عليك الحقيقة كما حدثت ولا أنكر أني كنت في نشوة قصوى وشعور بالسعادة كبير، وكنت أحس بخدر لذيذ كلما ازدادت ضماته المجنونة عنفًا وقوة.. لقد كنت أهمس لنفسي: ها قد تحققت أحلامك ونلت مرامك وظفرت بمحبوبك بعد كل تلك الليالي الطويلة من الشوق والحنين والحرمان والشك.. في تلك اللحظة لم أفكر في شيء غير ذلك، وكم كان الحاضر جميلًا إذا قورن بالعذاب الذي استشعرته بين يدي ذلك القرد الكريه في تلك القرية البعيدة.

واصلت تصنُّع النوم خشية إزعاجه فيسرع بمغادرة الغرفة، بل لم أجرؤ حتى على فتح عيني رغم الظلام الدامس المخيم على الحجرة، اعتقادًا مني بأن ذلك سيذهب بأحلامي.

ولقد تلقيت دعاباته في قبول حسن ودون أي اعتراض أو مقاومة بينما كان هو يهمس في أذني بعبارات الحب والغزل الرقيق، وأسلمت جسدي وكنت على استعداد كامل لأهب روحي للشيطان لو طلب مني ذلك.

أصبحت منذ تلك الليلة خليلته وخادمة فراشه في نفس البيت الذي تقيم حليلته بين جدرانه.

وتوقفت نبيهة عن الحديث وأخذت تجفف العرق الذي تجمع فوق جبينها بمنديل صغير بينما كان كامل يحملق فيها وقد أدهشه

اعترافها وحيره.. لم يحس بغضًا أو غيرة من هذه التفاصيل الجريئة لماضيها القصير.

لم يحاول النقد أو الإفصاح عمَّا خالج نفسه في تلك اللحظة بل آثر أن يضم اليدين الصغيرتين بين راحتيه ويضغطهما برفق، بينما سرح ببصره في الظلام المخيم على الكون فيما حوله حتى لا تشعر الفتاة بحرج إذا ما التقت نظراتهما ولكي تشعر بمزيد من الحرية في الإفضاء بما يثقل صدرها من أنباء وأحداث.. بينما استمرت نبيهة في تلك النبرة الهادئة الواضحة تقول:

"لم أفكر في ذلك الوقت فيما إذا كان الواجب يقتضيني أن أسلك سبيلًا غير تلك أيها الحبيب.. إني اليوم أقص عليك ما حدث فعلًا لا ما كان يجب أن يحدث على أية حال..".

لعل سيدتي أدركت ما حدث من نظرة أو إشارة عابرة، حدث بعدها تغير مفاجئ في معاملتها فاستبدلت بعطفها صمتًا عميقًا غير متوقع حتى أني كنت أسائل نفسي أحيانًا، خشية أن أكون مخطئة في ظني، لكني أخيرًا اقتنعت بأنها اهتدت إلى الأمر بغريزة المرأة التي لا تخطئ هذه الأمور ففقدت ثقتها السابقة بي".

لكني في نفس الوقت وقعت في حيرة من الأمر ولم أستطع حل هذا اللغز "لماذا لا تفاتحني في الأمر وتخرج عن صمتها وتحقق اتهامها؟".

ولقد حدثت فعلًا مشادة أو اثنتان في غرفة نوم سيدتي بينها وبين سيدي لكن الحديث الذي جرى بذكر اسمي كان خافتًا لا يكاد أحد أن يتبينه فاقتربت من المكان أسترق السمع ففاجأتني سيدتي فعنفتني على فعلتي تعنيفًا شديدًا ترك في نفسى أعمق الأثر وأثار فيَّ حزنًا عميقًا علاوة على ما كنت أحسه من عذاب الشك وتأنيب الضمير.

لقد كنت دائمًا أحب مواجهة الواقع والبت السريع في كل ما يعترضني من مشاكل، لكني إزاء ذلك الموقف كنت في منتهى ضعف العزيمة والتردد والحيرة حتى وقعت فريسة للعواطف المختلفة المتباينة التي عذبت روحي أقسى العذاب وأشنعه.

لقد كنت أحفظ في قلبي عاطفة فياضة نحو هذا الرجل الذي أسرني برجولته وعطفه، كما كنت أشفق على تلك السيدة التي تستعذب آلام الحياة إلى جواره.. فلم أفكر في ترك عملي بينهما والإقدام على حياة التشرد من جديد.

لقد كان سيدي طاغية في منزله تمامًا كما هو في عمله، فجميع من في المنزل بما فيهم الزوجة يخضعون لإرادته ونزواته خضوع العبيد..

ومع ذلك فقد كانت كل مقابلة تتم بيننا في الخفاء تحمل إليَّ في طياتها سرورًا عميقًا ممزوجًا بآلام غامضة لا أدري كنهها.. وذات يوم سألته في صراحة "ماذا يحدث لو أن سيدتي اكتشفت خيانتنا لها؟"

فأطبق فمي بيده القوية وهو يهمس في غضب: "واحد وواحد فقط هو الـذي له السلطة في هذا المكان وخلف هذه الجـدران.. لكـن حـذار أيتهـا الصـغيرة.. ولتعلمي أن سيدتك ليست عمياء إنما هي تتحاشى الفضيحة والعار.. والمذلة".

أجفلـت وسرت في جسـدي رعـدة خفيفـة عنـدما مـرت بخيـالي فكـرة افتضاح أمري ومواجهة سيدتي وجهًا لوجه وهي صاحبة الفضل عليَّ.

ولقد أدركت بعد ذلك مدى سيطرة الرجل على النساء واسـتبداده بهـن وسر تعلقهن به..

إن الرجال يا سيدي لا يطيقون الصبر على علاقة واحدة مهما بلغت من الجمال.. ويا لويل المرأة العقيم منا..

لقد أصبحت منذ تلك الليلة أرتجف كلما التقت نظراتي بنظرات سيدتي وأتوقع الشر، ومع ذلك فقد كنت أعطف عليها عطفًـا صـادقًا مـن كـل قلبـي وأشفق عليها من وحدتها المريرة القاسية وكنت في نفس الوقـت أعجـب لهـذا الصبر الغريب على هذا العذاب المقيم والحظ التعس.. لعل مكانة زوجها ومـا يتمتع به مـن جـاه ونفـوذ في الحكومـة هـي سر تعلقهـا بـه وحفاظهـا عليـه وصبرها على تحمل هذه الآلام في صمت.. أم لعلها تحبه حبًّا قويًّـا ولـذا تأمـل في صلاح حاله يومًا ما، وهكذا أبقت هذا الخيط الـواهي سـليمًا، ترخيـه كلـما اشتد عليه الجذب.

لقد نسيت أن أخبرك أن سيدتي كان حذرها مني وشكوكها في سلوكي يزدادان يومًا بعد يوم، رغم أنها لم تنبس بكلمة ولم تفصح عن شكها أو شكواها وأخذت أنا أيضًا أعد نفسي لمواجهة هذا الوضع الجديد وجعلت أقارن بين مسئولياتي وانتهيت إلى إنصاف نفسي وإلى أني غير آثمة فيما أفعل وإلى أن الاصغاء إلى صوت الضمير فقط عبث لا معنى له أو كارثة وخسارة محققة لي وحدي فسلمت الأمر للقدر.

ولقد فكرت كثيرًا في الأمر بعد ذلك وتحقق لديَّ أن الحكمدار أيضًا محقٌّ في الإبقاء عليَّ كل الحق لأن ذلك معناه المحافظة على سمعته إلى أبعد حد مستطاع بدلًا من تركها مضغة سهلة في الأفواه نتيجة بحثه وراء لذته خارج جدران بيته ومغامراته بين مختلف النساء.

إن علاقتي بالحكمدار كانت _في نظر المجتمع الراقي_ غير محتملة الوجود وهي في نفس الوقت قد خففت من حدة النقد والغيبة التي اعتاد المجتمع الأسيوطي أن يخص بها سيدي والشائعات الكثيرة التي راجت حول اسمه.. أفلا ترى أني أسديت له خدمة ولو أنها خدمة شاذة، لكنها على أية حال خدمة جليلة.

وا أسفاه.. إذا ما سيطرت عاطفة ما على إنسان فإنها سرعان ما تفتح الباب لعاطفة أخرى أو عادة ضارة أخرى وربما ثالثة.. فإذا كانت غريزة الجنس أو شهوة النساء هي الغالبة فإنها عادة ما تصحبها

عادة إدمان الخمر وفي أحوال كثيرة تتغلب عادة إدمان الخمر وتصبح النقيصة الأولى في صاحبها وقد تؤدي به إلى الهلاك.

لم ألحظ قط العادة الثانية التي كانت تتحكم في سيدي لأنه لم يكن يقدم إحداهما على الأخرى بل كان يقدس كلًّا من الخمر والنساء على السواء.

على أية حال لقد بدأت آثار الإدمان اللعينة تبدو عليه، فهو يشكو كل يوم من مرض جديد في جسده أو رأسه ثم أصبح معتل الصحة بصفة دائمة، فاختفت من وجهه ابتسامته المشرقة وحل محلها العبوس والتجهم وشرود النظرات وأخيرًا بعد إحدى الأزمات استدعى طبيب الأسرة الذي همس في أذن سيدتي بعد إتمام الفحص، وبلغة لم أفهمها أن النوريستانيا قد بلغت مرحلة خطرة عند سيدي وأردف ذلك بقوله: "لا أملك شيئًا فعالًا أدفع به الخطر عن المريض.. إذا عجز العلم عن أن يدفع المرض.. وإذا استحالت مثل هذه الإرادة الحديدية إلى شيء هش لين ولم يستطع العلم أن يفعل شيئًا فما أحقر العلم.. سيدتي لننتظر معجزة من السماء.. لتبذلي كل ما تستطيعين من جهد في العناية به وفي القيام بهذا العلاج سريعًا وبدون تأخير.. إن التأخير قد يؤدي إلى نتائج خطرة.. ولعل الله يمن عليه بالشفاء".

خطرة.. خطرة.. كانت الكلمة تتردد في نغم حزين في مسمعي..

لقد تبخر كل سلام من ذلك المنزل مع حلول تلك الكارثة

وعمت الفوضى جميع سكانه وأصبحت سيدتي قلقة حيرى موزعة النفس فريسة للأوهام والأحزان أكثر من ذي قبل وأوشك ذلك البناء الفاسد من أساسه أن ينقض.

وفى هذه اللحظات الحرجة لم يكتفِ سيدي بما يعانيه من أمراض وآلام وعادات مهلكة فألقى بيديه في هوة جديدة فغرت فاها للناس منذ عهد قريب لتقودهم إلى موت محقق وخراب عاجل.. لقد انغمس فى هوة الكوكايين.

وإذا كانت عينا سيدتي تفيضان دائمًا بالدمع فإن عينيَّ أصبحتا لا تكفان عن البكاء ونفسي لا تكف عن النحيب والوجيعة واعتراني نوع من الحزن العجيب يزداد عنفًا كلما شعرت بعجزي عن القيام بشيء من أجل هذا الرجل إلا إذا أسيء تأويله فيقعدني الخوف عن العمل.. حتى كلمة العزاء والمجاملة لم أكن أستطيع التلفظ بها.. بل إني أصبحت موضع بغض وكراهية فوق كل تصور ولمَّا لم أكن أكثر من خادم حقيرة فلا شك أني كنت مدينة بوجودي تحت ذلك السقف لإرادته الحديدية التي لم تكن تقبل المراجعة..

لكن كان هناك عاملان يساعدان على احتمال هذا الوضع المؤلم البغيض.. فهناك شي من التسامح من جانب سيدتي لما تحسه من انفضاض الناس من حولها، فهي لذلك تبغي بقاء شخص ما إلى جانبها ولو كانت تكرهه.. كما كان هناك شي من الصبر والجلد من

جانبي كنت أبذله من أجل هذا الرجل الذي ألقتني بين يديه جريمة عمي الشنعاء وربطتني به عاطفة أثيمة جعلت منه رغم كل اعتبار كنزي المحبوب ومثلي الأعلى الذي أحببته.

وذات يوم عاود المرض سيدتي وألزمها الفراش وكان قرار الطبيب يحتم عليها الراحة والنوم لمدة طويلة، وهكذا أصبح سيدي فى حالة مرض وفي حاجة إلى العلاج والعناية التامة وكنت خلال هذه الفترة، المسئولةَ عن كل ما في البيت وكان على الخادمين الآخرين أن يطيعا كل ما أصدره اليهما من أوامر.

ولقد قهر المرض سيدتي وأرغمها على النوم في الفراش والاستسلام لهذه المحنة الجديدة وكتمان عواطفها وكراهيتها لي، أما سيدي فما زال يعبث بقلبي وعواطفي وجسدي كما يعبث الهر بقطعة من القماش.

بل الأدهى من ذلك ما تمادى فيه الحكمدار من عبث تستطيع أن تسميه صفاقة أو وقاحة.. لقد بلغ استهتاره بحرمة بيته أن يستدعيني إلى حجرة نومه ويستبقيني فيها طوال الليل غير مبال بالعواقب، وكنت أضطر إلى طاعته خشية ثورته عليَّ وهو في حالة سكره الشديد أو بطشه بي وهو في غير وعيه حتى أصبحت مع الأيام لا أدري هل أنا في حلم مزعج مخيف أم أحيا يقظانة وسط قوم من المجانين؟ هل أنا خادمة في البيت أم أخذت محل سيدة المنزل التي لا تزال على قيد

الحياة؟ وأحيانًا كان يخيل إليَّ أن الغد سيحمل معه تغيرًا خطيرًا في معاملة سيدي لي أو نهاية هذه العلاقة الشاذة الأثيمة، لكن رغم كل ذلك كنت أنصرف إلى عملي في المنزل بحزم وإخلاص كالمعتاد.

على أية حال كانت أعصابه تزداد حالتها سوءًا يومًا بعد يوم وكان هو يزداد إمعانًا في تعاطي الخمور والمخدرات وأخذ مظهره يتغير ومعاملته لمرؤسيه في المكتب تزداد جفوة وخشونة ويذهب إلى المكتب في حالة مزرية.. هذا الرجل الذي اشتهر بالنظام والدقة في كل شيء..

لم يستطع أحد أن يوقف انحداره السريع نحو الهاوية.. وبدأ سيل الشكاوى ضده يصل إلى وزارة الداخلية.. وكان إذا ما تحدث إليه أحد برفق استشعر الندم ونوى التوبة وأخلص فيما بينه وبين نفسه النية لكن ما تكاد شمس اليوم تغرب حتى يتحول ثانية إلى المنحدر الرهيب.

وذات صباح استدعاه المدير على غير انتظار ومكث معه في المكتب منفردين ساعتين كاملتين.. لم يعرف أحد ما دار بينهما في هذه المقابلة لكن من الجلي الواضح أن المدير عنفه وآخذه على مسلكه المشين.

بعد هذه المقابلة ازدادت حالته سوءًا وأنذرت بالخطر إذ أصبح كثير الإطراق والصمت والتفكير وكثيرًا ما فاجأته قد انفرد بنفسه وأخذ يعبث بمسدسه الذي اعتاد أن ينظفه بنفسه ويعنى بآلاته وأجزائه.. لكن لم يكن هناك ما يثير الشك في نواياه..

أعترف لـك بأنـه لم يفـتح لي قلبـه قـط.. ولعلـه كـان يعتـبر حديثـه إلى مخلوقة أحط منه درجة لا تدري شيئًا عن مسائل المجتمـع والثقافـة انتقاصًـا من قدره أو حديثًا عبثيًا لن يجد له صدًى في نفس تلك الجاهلة..

لكن مرحه الطبيعي وطبعه السـاخر كـان يبعـد احـتمال إقدامـه عـلى اقتراف تلك الفعلة النكراء.

في حياتي لم أتعلم الشـك أو الريبـة في نوايـا النـاس لكنـي كنـت أحيانًـا أخشى ساعات المرح الزائد عن الحد.. وأرهب ما يخبئه القدر وراءها..

وإني أعترف لك أيضًا بأن الحكمدار لم يغلظ لي القول طوال مدة إقامتي في بيته كما كان يفعل أحيانًا مع الآخرين، أمـا أحاديثنـا فكانـت قصـيرة إلا أن هذا لم يؤثر في علاقتنا القوية التي ظلت متينة حتى النهاية بـل أقـوى مـن أي علاقة بين زوجين شرعيين.

إني لا زلت أذكر الحديث الذي دار بيننـا صـبيحة اليـوم التـالي لمقابلتـه للباشا المدير بينما كان ممسكًا بالمسدس يعبث به بين يديه:

"هل ستذكرينني دائمًا يا نبيهة؟ حتى بعد أن يطويني الردى؟".

"ما هذا الذي تقول يا سيدي البك..؟".

"لا شيء.. إنما كنت أمزح معك".

ولمَّا رأى الدموع تسرع إلى عيني أخذ يربت على يدي بلطف ويـداعب وجهي بلمساته الرقيقة.

وتغيرت معاملته بعد ذلك لزوجته المريضة فكان معها أكثر رقة وعليها أكثر حدبًا وامتنع عن تناول الخمر فجأة وأصبح حديثه خافتًا ذا نبرة حزينة وخيم على المكان جو قابض رهيب.

وبعد ثلاثة أيام لمحته يجلس إلى جانب زوجته على طرف السرير يتحدث إليها فاقتربت من باب الغرفة متظاهرة باشتغالي في بعض أمور البيت لأسترق السمع فسمعته يقول لها في رفق: "عايدة.. سامحيني بما أذنبت في حقك.. امنحيني عفوك"، لكنها لم تجبه بشيء، فاستطرد يقول: "عايدة .. أنت يا شريكة حياتي العزيزة.. إني أسألك الصفح فلا تبخلي عليَّ به ولا تحرجي صدري.. إنني في موقف، أراني إزاءه عاجزًا عن الإفصاح عمَّا في نفسي.. لقد كنت أنا دائمًا ضحية عدو مخيف سيطر على مصيري.. لقد كانت الظروف تضطرني إلى خداعك.. لقد كنت غير قادر على الإفلات من أحضان الأجنبيات اللائي أحطن بي واللائي كنت أحتقرهن أبدًا.. لكن جسدي كان سيد الموقف دائمًا.. لقد قدر عليَّ أن أغش المرأة التي اخترتها لتكون حليلتي وشريكة حياتي.. لقد لحقتني لعنة القلق منذ أن ولدت فكنت لا أستطيع صبرًا على شيء، وكنت دائمَ البحث عن الجديد وعن الانفعالات الحديثة و العواطف الشاذة العارمة.. لم أكن أستطيع الإبقاء طويلًا على أية صداقة.. كانت حياتي حيرة متصلة وعذابًا سرمديًّا.. لكن ثقي.. أن واحدة من هاتيك النسوة.. المصريات الحالمات أو السودانيات الملتهبات أو الشركسيات ذوات العواطف الحارة أو البدويات الجميلات أو الأوربيات المرحات..

واحدة من هذا الجيش من الساقطات اللائي كن يتهادين أمام نظراتي لم تستحوذ على شيء من تفكيري أو تحتل شيئًا من معبد روحي.. غيري كثيرون لا يستطيعون صبرًا على المعركة وسرعان ما يستسلمون للهزيمة ويتنازلون عن طموحهم وأطماعهم، لكني كنت شاذًا في هذه الناحية فلم تعرف نفسي الهزيمة قط وإذا كنت أشعر بالاشمئزاز من تصرفاتي وأحس الهوان الذى يحيق بي في الليل فإني مع الصباح أجد حيويتي قد تجددت وأصبحت أحس استعدادًا لخوض غمار المعركة الخالدة".

ومع ذلك فقد ظلت المريضة ساكنة لا تنطق بينما استطرد وهو يقول: "إنني اليوم أعترف لك أيتها الحبيبة بكل هذا لأني أحس بنور عجيب وهداية إلهية في قلبي ولقد أصبح هذا الإحساس الكريم يراودني كثيرًا في هذه الأيام.. لقد أدركت القيمة الحقيقية للحياة وأرى ضميري يعذبني وهو الذي يوحي إليَّ بأني مدين لك بالكثير، وأن عليَّ أن أشرح لك تلك العوامل القاهرة التي سيطرت على تصرفاتي وأن ألتمس صفحك.. إن كل المسرات والشهوات التي تمتعت بها لم تكن سوى القذارة والعفونة مجسمة.. لا شيء في الحياة أكثر بشاعة وحقارة من نزوات الإنسان وشهواته".

لقد أدركت وأنا في مكاني أن زوجته في حالة إعياء تام لا تساعدها على متابعة حديثه أو إدراك ما يهدف إليه لأن كلمة واحدة طوال هذا الوقت لم تصدر عنها ولا اختلجت منها الشفاه خلجة واحدة.. أما هو

فلم يكن يحس شيئًا مما حوله بل استغرق اعترافه كل حواسه وجوارحه فاسترسل في اعترافه وكأنه يناجي نفسه غير شاعر بشيء ولا ملقيًا باله إلى من يخاطبها وأخذ بعد برهة صمت وجيزة يقول لها: "والآن أيتها الحبيبة لقد اتضح أمامي الطريق.. إنه طريق طويل شاق بعيد كل البعد عن نزوات الماضي وسقطاته.. هل تساعدينني مرة أخرى حتى أستطيع البقاء؟ ألا تستطيعين الصفح عني صفحًا خالصًا من قلبك؟".

وهنا انفجرت المريضة في بكاء حار يقطعه تنهدات وشهقات عميقة.. إنها لا تكاد تصدق أذنيها ولا تثق بأنه هو الذي يحدثها بكل هذه الحرارة والإخلاص.. لا شك أنها كانت تحلم.. لقد كانت رؤية سعيدة.. أن تراه ملكًا كريمًا أتى ليعيد إليها الثقة بنفسها ويبشرها بالخير والسعادة والهدوء بعد هذه المحنة الطويلة القاسية.

لم تكن قادرة على إمساك دموعها وكانت الدموع وهي تفيض من عينيها تحمل معها بعض أعباء الماضي البغيض..

وسمعت بعد ذلك حركة تنبئ بتغيير المكان وهمسًا خافتًا وصوت قبلات مختلطة أنبأت عن تمام الصلح وعودة المياه إلى مجاريها.

يا إلهي.. إلى أي حد يبلغ الإنسان من التوحش والظلم؟

وهل هناك منظر أجمل أو أسمى من زوجين يتصافيان ويجددان عهد الوفاء بعد قطيعة طويلة! لكن كم كان ذلك قاسيًا على نفسي ومؤلمًا وقعه على قلبي؟! لقد خرج الحكمدار من لدن زوجته تفيض

نفسه بشرًا وسعادة فمر بي دون أن يبدي إشارة تنم عن إحساسه بوجـودي او اعترافه بمكاني..

وعندما تقـدم الليـل وآويـت إلى غرفتـي الصـغيرة العاريـة مـن الأثـاث أحسست بنيران الحمى تلهب جبهتي والدماء تنـدفع حـارة تكـاد تمـزق رأسي بينما كانت عيناي تبرقان ببريق الحقـد والغضـب ولا تطرفـان.. وقـد اشـتد بي العذاب والألم وأنا أرى نفسي يغتصب منها حبيبها..

لقد اشتدت بى غيرة عمياء لم أجد لها متنفسًا إلا الدموع التـي انبعثـت من عيني وأخذت تنثال على وجهي وتغرق وسادتي.

أنا طريدة المجتمع الشريدة في الطرقات غيرى مـن سـيدة البيـت التـي آوتني، فأي شناعة تلك؟ وأي صفاقة وقلب للأوضاع كان يجري في ذهني؟!

وعندما انفثأ غيظي وخفت سورة غضبي واستطعت أن أفكر في هـدوء ووضوح ساءلت نفسي: علام كل هذا البكاء والحقد؟ وفيم كانت هـذه الثـورة العمياء؟ ألأن سيدي صالح زوجه؟ يا لي من شقية بائسة؟ ويـا لي مـن جاحـدة كافرة؟ وهل هناك ضعة تبلغ بصاحبها أكـثر مـن هـذا؟ وهـل مـن العدالـة في شيء أن أؤسس سعادتي وأغنم لذاتي على حساب شـقوة الآخـرين وتعاسـتهم؟! يا ويلاه من انتقام الجبار؟! فلعلي أعود شريدة كما كنت؟! وهل كانت الحيـاة إلا سخرية مريرة من الآدميين؟!

ظللت أبكي في مكاني بكاء مريرًا حتى غلبني النعاس فنمت نومًا مضطربًا تخللته الأحلام المزعجة.. لقد رأيت الشياطين تقتتل وتختصم أيها يظفر بي أولًا ويذهب بروحي الشقية ليلقي بها في فرن ضخم تحتدم ناره وتغلي وتفور على مسافة خطوات قليلة مني.. ولقد حاولت الاستغاثة عبثًا لأن صوتي كان مبحوحًا غير مسموع وتوقفت كلمات الاستعطاف والرجاء في حلقي فلم أستطع بها حديثًا فحاولت الإفلات من معذبي، لكني وجدتني غير قادرة على الحركة إطلاقًا واقترب مني أحد الشياطين يرتدي جلدًا كجلد الضفدع وله من الأطراف ما لا حصر له، ذات أظفار طويلة كالحراب، ووجدتني لا أستطيع دفعه عن نفسى لعجز يدي عن الحركة ولم يكن هناك أحد يدفع عني الكارثة.. وفتح فمه عن أسنان كأنياب الكلب وقهقه في وجهي قهقهة أرعبتني ومد ذراعية ليطوق جسدي شبه العاري، فسرت فيَّ قشعريرة وصرت أرتعد من الخوف ويزداد رعبي كلما اقتربت يداه من جسدي.

وفجأة انتشلت من هذا الجحيم الشيطاني لكن قبل أن تتاح لي الفرصة لأفتح عيني وأرى ما حولي أحسست بيد تتحسس جسدي وتربت خدي وتدلك أطرافي المثلجة حتى خيل إليَّ أني وقعت فريسة حلم جديد.. لكن في هذه المرة حلم جميل عذب لكنه لم يكن حلمًا.. ولم تكن الذراعان اللتان تطوقان جسدي من صنع الخيال.. ولم تكن هناك روح شريرة تهاجمني بل كان هناك مخلوق يضمني في

شغف ووجد.. وفتحت عيني لأراه أمامي بنفسه.. الحكمدار حسين بك.. لقد كان هو حقًّا بجسده وروحه حقيقة ماثلة أدركها كما أدركت صوت دقات الساعة تعلن الثالثة صباحًا ويتردد صداها في أنحاء المنزل وسط هدأة الليل..

وتلاحقت أمام ذهني المكدود صور ما حدث عصر اليوم السابق.. تلك الصور التي أرقتني وعذبتني.. فتراجعت احتجاجًا على هذا المعتدي الصامت الذى لم يعبأ بقلبي الجريح قائلة له: "سيدي البك.. أنسيت سريعًا وعودك لسيدتي؟!".

"اصمتي أيتها الحمقاء.. لن يحدث لك شيء يزعجك أو يزعزع مكانتك عندي".

وسرعان ما أطبق ذراعية عليَّ وغمرني بقبلاته المحمومة وغادرني قبل الفجر إلى حجرته التي تقع بجوار حجرة سيدتي.

واستيقظت بعد طلوع الشمس لأجده قد سبقني إلى الاستيقاظ، فأسرعت إلى حجرته وطرقت بابها برفق _وما كنت أجرؤ للظهور في ضوء النهار بأكثر من مظهر الخادمة_ فأذن لي في الدخول وكان أول شيء لمحته في الحجرة المسدس يلمع بين يديه وقد وضع إلى جواره على المنضدة زجاجة خمر أتى على نصفها.. وقد علمت فيما بعد أنها كانت زجاجة ويسكي لم ألحظ وجودها في الحجرة من قبل، ولعله أحضرها معه ليلًا عند عودته إلى المنزل.

أطرقت رهبة منه لأني أعلم تمامًا أنه في حالة السكر يكون سريع الغضب سليط اللسان وسألته في صوت ذليل عمَّا إذا كان يريد طعام إفطاره فأجابني بنبرة لن أنساها ما حييت.. نبرة عميقة هادئة رقيقة حازمة.. قائلًا: "أريد كوب ماء يا نبيهة"، فتوجهت إلى المطبخ وأنا حائرة في أمر هذا الرجل العجيب وتصرفاته الغريبة.. لقد كان منذ ساعات قلائل يفيض مرحًا وحيوية فماذا دهاه؟ لعله الشراب.. الذي تسبب في إصابته بالنوريستانيا.

لقد عجز الطب عن شفائه من آلام كليتيه، فكان كلما ازدادت آلامه أغرق في شرب الخمر لينسى هذه الآلام وكانت الخمر تساعد فعلًا على تحسين حالته المعنوية وربما توهم أن فيها شفاء لما يعانيه من آلام..

حسبت وأنا في طريقي لإحضار الماء أنه ربما أصيب ببعض آلام الكلى فلجأ إلى الخمر في ذلك اليوم ليخفف حدتها وأسرعت في ملء الكوب بالماء وقد نسيت تمامًا أن المسدس أيضًا كان بين يديه يقلبه..

لكنى ما كدت اقترب من حجرته والماء في يدي حتى روعني صوت ثلاث طلقات نارية وندت عني صرخة مولولة لا شعورية وسقط الكوب من يدي وأنا أعدو نحو الغرفة صائحة: "يا إلهي.. يا سيدي.. يا للمصيبة.. يا للتعاسة..".

وما إن بلغت باب الحجرة حتى تمسمرت في مكاني وتملكني الرعب والفزع، وقف شعر رأسي لهول ما رأيت..

لقد كان سيدي ممددًا على الأرض وجمجمته مهشمة وبقع الدماء متناثرة حوله وقد تغطى وجهه وصدره بالدماء وكان هناك بقية من نبض وحركة في جسده لكن روحه كانت بغير شك في طريقها إلى العالم الآخر.

لقد أطلق رصاصتين بجوار القلب ولمَّا تبين أنه لم يصب من نفسه مقتلًا أطلق الرصاصة الثالثة في جانب رأسه بجوار الأذن..

عندما أفقت قليلًا من هول الصدمة لمحت من خلال باب الحجرة الأخرى سيدتي ممددة في فراشها في حالة إغماء تام.

وتوقفت نبيهة عن الكلام فجأة مبهورة الأنفاس ولقد لاحظ كامل أنها كلما اقتربت من نهاية هذه القصة المفجعة انخفض صوتها وتلاحقت أنفاسها وتصبب العرق البارد على جبينها وذهبت كل محاولاتها للسيطرة على أعصابها سدًى، ولم يطق كامل أن يتحمل رؤية الحبيبة تتحمل كل هذا العذاب فقاطعها بنبرة كلها حنان وحب: "كفى يا حبيبتي كفى.. إنني أتخيل باقي القصة.. لقد أرسلت الجثة إلى بلدته في الوجه البحري بعد استيفاء الإجراءات القانونية المتبعة في مثل هذا الحادث، في عربة خاصة بالسكة الحديدية، كتب عليها: تعاد فارغة إلى محطة أسيوط.. إنها مأساة أليمة.. إنني أتخيل ما

حدث لك بعد ذلك.. لقد كان منظرًا مثيرًا حقًّا بينك وبين سيدتك _الممثلة الأولى في هذه القصة_ بعد انتهاء الجنازة أدى بك إلى ذلك المنزل المشئوم الذي قادك إلى مغامرتك على تلال أسيوط الليبية تلك المغامرة التي انتهت بك إلى هذا المكان الهادئ الذي تستطيعين قضاء أيامك فيه بسلام دون أن يعكر صفوك مكدر ولا سيدة تذلك أو تثير غيرتك".

وكان كامل وهو يتحدث يداعب خصلات شعرها الأبنوسية برفق وحنان أعادا الهدوء إلى نفسها الملتاعة.

يحيا الوطن

زيارة غير منتظرة من أربعة من كبار المصريين المشتغلين بالسياسة إلى دار المندوب السامي البريطاني ليطلبوا منه اعتراف بريطانيا باستقلال مصر..

وصفت تلك الزيارة حينئذ بالجرأة، وقال الإنجليز عنها: "إنها وقاحة"، وأيًّا كان وصفها فما يعنينا اليوم سوى أنها كانت الشرارة الأولى التى اندلعت منها ثورة عام 1919.

وعندما أعلن النبأ في الصحف وتناقلته الألسن في أنحاء البلاد.. تنبه أحفاد الفراعين بعد تلك القرون الطويلة من الظلم والاستعباد وتكهرب الجو من أقصى البلاد إلى اقصاها لكن في سكون لم يدم إلا قليلًا وانفجر على أثره البركان عندما تسامع الناس بنبأ اعتقال القادة الأربعة ونفيهم إلى مالطة.

كان الانفجار مروعا عنيفًا مغيظًا وكان شعار الجميع "الاستقلال التام أو الموت الزؤام".

ثم هدأت الثورة قليلًا وكأنها إرهاص عنيف لم تكن الملايين من الفلاحين قد أعدت له الإعداد الكافي وخيل إلى الناس أن الجماهير

قد فزعت من هذا الشعار الدموي وآثرت الانسحاب من الميدان مرة أخرى والقناعة بالسلام الذي اعتادته.. فخفتت الأصوات وتضاءلت المظاهرات الضخمة التي كانت تنادي بالحقوق المشروعة وحق الشعب في حكم نفسه وبالحرية لشعب له مدنية وله تاريخ مجيد منذ ستة آلاف عام عندما كان العالم كله يعيش في الكهوف ويحيا مع دواب الأرض وحيوان الغابات..

لكن _وبدون انتظار_ ثارت عاصفة مدمرة من الغضب الثائر مرة أخرى، تحركت الثورة ثانية وكأنها مدفوعة بيد القدر وذلك عندما تقدمت تلك الفئة المتعلمة القليلة التي لا تكاد تذكر بالنسبة إلى سكان البلاد في ذلك الوقت، وأخذت على عاتقها إيقاظ الشعور القومي وشرح القضية للملايين وقد حلا لبعضهم _لتقريب الفكرة إلى الأذهان_ أن يربط المسألة القومية بالمصالح المادية.

وقد كان جل الاهتمام موجهًا إلى طلبة المدارس وسرعان ما جند الألوف من الطلبة لخدمة القضية الوطنية وأعلنت الإضرابات في المدارس والمظاهرات، ولم يكن لتلك الأمة التي بلغ تعدادها خمسة عشر مليونًا من سلاح إلا هذا السلاح السلبي وقد تجاوب الشعور في أنحاء البلاد نتيجة لما عاناه الناس من عنت وإرهاق تحت نير الاستعمار البغيض وهبت البلاد من أقصاها إلى أقصاها تردد نداء واحدًا: "يحيا الوطن".

واندلعت نيران الثورة وأنذرت الأحداث بالنذر وأدرك الكثيرون ما ينتظر أن تتمخض عنه الأيام من أحداث أليمة لكن ما كان واحد يجرؤ على مفاتحة المسئولين بشيء خشية أن يتهم بالخيانة.

أما الأستاذ كامل فقد انضم من اليوم الأول إلى اللجنة الوطنية لمدينة أسيوط وكان من أعضائها العاملين الذين لا تفتر لهم همة ولا يقف لهم نشاط وقد كرس حياته منذ ذلك اليوم لخدمة الهدف الأسمى للبلاد جميعًا، ألا وهو تحرير الأمة من الاستعمار الأجنبي.

ولقد مضى الآن خمسة أشهر منذ أن حلت نبيهة ضيفة عليه في بيته وهي مدة كافية لأي إنسان ليفرغ من تجربته ويصل إلى نتائجه، وربما إلى التبرم بهذه التجربة ثم البحث عن متعة أخرى في خبرة جديدة، لكن الظروف التي جدت حوله وشغلت عليه تفكيره صرفته عن كل ما عداها كما أن كاملًا لم يكن من النوع سريع الملل، سريع التنقل ولم يكن هناك ما يدعو إلى ذلك لا سيما وقد استطاع أن يحقق أحلامه القديمة بواقع ساذج عاونته الظروف على بلوغه، بأن ألقت بين يديه بهذه اليتيمة الطريدة التي لا حول لها ولا قوة، فخيل إليه أن مشكلته الاجتماعية الكبرى، وهي العلاقة بين المرأة والرجل وهل يمكن أن تكون بغير قيود الزواج، قد حلت.

واندفع يعمل في سبيل بلاده بحماس بالغ وقد شغل بالأحداث التي واجهت أمته ولم يعد يحس الفراغ الذي كان يكتنف حياته من

قبل ولم يعد بيته قلعة الأنانية التي كان يعيش فيها بل وجد فيه حياة أخرى جديدة محببة إلى نفسه يتذوق حلاوتها ويلقي عند أعتابه كل أعباء يومه ويخلع كل سلاح تحصن به في نهاره ضد خدع الحياة ومساوئ المجتمع الحديث المعقدة.

وفى داخل هذا العش كانت تلك المخلوقة الضعيفة المتواضعة في ذلة تملك وتحكم في سلام وكانت على استعداد دائم لتلقي سيدها بذراعين مفتوحتين وابتسامة عذبة لا تغرب عن شفتيها وعندما كانت تحين الساعة ليقبل سيدها ويستلقي على الأريكة ليأخذ قسطًا من النوم تذهب هي كهرة صغيرة _وكما كانت تفعل دائمًا_ لتجلس عند قدميه ترقبه في هيبة واحترام وتطيل النظر إليه وهو يحاول النوم.

أما كامل فكانت هذه الأعمال البدائية الخالصة تفتح لها قلبه وتحرك عاطفته نحوها وتثير إعجابه فلا يتمالك أحيانًا من أن يحملها بين يديه أو يدللها كطفلة صغيرة محبوبة.. لقد كانت تفتنه أنوثتها الذليلة التي يظهر ضعفها بين يديه وخضوعها أمام رجولته فيحس رضاء عن نفسه وشبعًا لغرائزه الموروثه وتقاليده الشرقية ذات الجذور العميقة في حنايا نفسه.

لكن علام كانت تنطوى نفس نبيهة؟!

لا شك في أنها لم تكن تنكر عليه سيطرته كرجل وهي مسألة لم يكن هو يحاول إظهارها قط لأن تفوقه كان معترفًا به من الجميع وهي

كسائر رفاقه كانت تعلم مقدار تفوقه وسمو مداركه ومشاعره وفهمه للحياة.

إلى جانب هذا كانت نبيهة لا تحس بأنها في حاجة إلى شيء قط وأن كل لوازم الحياة _في نظرها_ كاملة لديها وهذه مسألة لها قدرها وخطرها.

لقد أغدق عليها كامل منذ قدومها عليه حتى أصبح لديها من الثياب الداخلية والخارجية أغلاها كما سمح لها بأن تبسط سلطانها على كل من في البيت وكان لها من شخصيتها القوية ما يساعدها على ذلك فأصبحت سيدة البيت الأولى وامتد سلطانها حتى شمل خادمه الخاص الشيخ علي الذي لازمه منذ طفولته.. أما فاطمة فكانت معها على وفاق تام وكانت نبيهة تكن لها الحب والإخلاص.

ومع كل هذا النعيم الذى لم تكن لتحلم به يومًا ما، كثيرًا ما كان كامل يلمحها في الشرفة ساهمة حزينة شاردة الفكر سابحة في أحلام وأخيلة لا يعلم سرها إلا هو..

كانت نظراتها متجهة إلى الأفق البعيد.. إلى ضفاف الإبراهيمية.. أم ترى إلى أشجار النخيل التي تتراءى بعيدًا على الأفق.

أما كامل فكان يرجع هذا الحزن الطارئ إلى تفكيرها في أهلها وعشيرتها وإلى حنين مؤقت إلى بلدتها ومسقط رأسها سرعان ما تنساه وتعاود سيرتها الأولى.. فلم يحاول البحث وراء ذلك أو

الاهتمام به ولم يغير معاملته لها بل كان تفانيها في خدمته وطاعته يزيد من اعتقاده في طفولتها وعدم نضجها العقلي فلا تجد منه إلا المزيد من المداعبات التي تليق بالأطفال الصغار.

أما نبيهة فكانت رغم كل ما تلاقيه من حدب سيدها وعطفه عليها ترى أن مسألتها في حاجة إلى حزم وكياسة ولذا لم تغير بعد اعترافها الكامل لعادتها في الانسحاب مبكرًا بعد العشاء إلى غرفتها الصغيرة ولم تحاول قط أن تلعب معه لعبة الغانية الشريرة التي لا هم لها إلا اقتناص ماله وسلب ما تستطيع من متاع..

وتتابعت الأحداث وازدادت خطورتها وبدأت السكة الحديدية تضطرب وتقطع خطوطها بين يوم وآخر والمواصلات يختل نظامها والمديريات تنتقل إليها عدوى الثورة يومًا بعد يوم فيعمد الثائرون إلى قطع المواصلات مع العاصمة حتى تعرقل سير قوات الاستعمار إليها وتخبطت اللجان الإقليمية في قراراتها وكثيرًا ما أخطأت التوجيه نظرًا إلى عدم وصول تعليمات العاصمة، فارتكبت أعمالًا مربكة خاطئة لم يفد منها أحد إلا العدو.

وأضربت المدارس في أنحاء القطر وسار الشباب في جميع البلاد في مظاهرات هاتفين بحياة الوطن مطالبين بحقوقهم العادلة دون جدوى ودون أن يبدو في الأفق أي أمل جدي في خير البلاد بل شاع في بعض المدن روح من الذعر وسادها نوع من الفوضى.

وقد نبتت في وسط هذا الجو القاتم المتأرجح بعض منظمات مستقلة عن المشتغلين بالسياسة لكنها اتخذت لها مظهرًا وطنيًّا تخفي وراءه أغراضها الذانية ومصالحها الخاصة المريبة التي تهدف إلى تحقيقها.

كما أن بعض المجرمين وقطاع الطرق ونهازي الفرص كانوا يستغلون النفوس البريئة الخارجة في سبيل الوطن والأغراض النبيلة، فينحرفون بها عن قصدها ليجدوا فرصة لتحقيق مآربهم الدنيئة من سلب ونهب وفوضى تسيء إلى الوطن أكبر الاساءة وتشوه جمال الثورة وتسيء إلى جنودها المخلصين الأبرياء.

وكانت لجنة أسيوط الوطنية مثقله بأعباء جسام.. كان عليها إدارة دفة الحركة في إقليم واسع الأرجاء اشتهرت بلاد كثيرة فيه بالفوضى والأمن المختل وإيواء بعض المجرمين الأشرار وقد صادفت اللجنة عقبتين كبيرتين على جانب عظيم من الخطورة، الأولى انعدام المواصلات المباشرة مع اللجنة المركزية في القاهرة والثانية العدد الكبير من الجواسيس الذين يعملون لحساب قوات الاحتلال، فكان على كامل أن ينظم خدمة سرية وقد كانت مهمة في حاجة إلى رجل حاد الذكاء قوي الأعصاب إلى درجة البرود المتناهي، على إلمام تام بنفوس الرجال وطبائعهم.. ولقد نجح كامل في مهمته نجاحًا عظيمًا واستطاع في فترة وجيزة أن ينظم وسيلة الاتصال باللجنة المركزية في القاهرة وأن يتلقى تعليماتها بصفة منتظمة.

ومع كل هذه المشاغل فكان كامل حريصًا على رعاية بيته وما إن يقبل المساء حتى ينسى على عتبة الدار كل مشاكل اليوم ومتاعبه وأحداثه ويتخفف من أعبائه مع ملابسه ويجلس في الشرفة ونبيهة في وضعها المحبب إليها قابعة عند قدميه مسندة ذراعيها إلى ركبتيه.

أما في ظهر كل ثلاثاء فكانت نبيهة تصطحب فاطمة إلى الحمام التركي الذي خص النساء به في ذلك اليوم فيؤمه السيدات من جميع الطبقات متخذات من الحمام محلًا للسمر والحديث ورواية أخبار المدينة واستعراض الجمال والأزياء.

إنهن في ذلك اليوم لا يفكرن قط في الاستفادة من الحمام أو "المغطس" وحمام البخار بل يسعين إلى التحرر من عبودية الحريم واستبداد الرجال في تلك السويعات، حيث ينطلقن في الضحك والمزاح بملء حريتهن بينما لا تني أفواههن عن أكل ما حملن معهن من أنواع النقل كالبندق والجوز والزبيب والفستق والتمر وأحيانًا الفواكه الطازجة، كما يشربن القهوة والشاي في الحمام في بعض الأوقات.

ويحتوي القسم الرئيسى في البناء على بهو ضخم يتوسطه خزان كبير للماء تنساب المياه الباردة والساخنة من الصنابير العديدة الموضوعة فيه.. ثم المغطس ويصعد الرواد إليه ببضع درجات ثم يختارون بعدها المكان المناسب للجلوس لتلقي البخار أو النزول فيه.

والمكان بجميعه يغمره البخار المتصاعد من المغطس فيزيده حرارة ويغرق الجسد في بحور من العرق.

وفي هذا البهو المضيء بالفتحات الزجاجية الصغيرة العديدة الموجودة بالسقف، كثيرًا ما استلقت ربات الجمال والدلال في أسيوط عاريات كما ولدتهن أمهاتهن مستسلمات لأيد خبيرة في التدليك تعمل على صيانة جمالهن وتجميلهن وبعث الحيوية في أجسادهن.

ولم يكن يجرؤ رجل واحد في يوم الثلاثاء على الاقتراب من الحمام الخاص بالفتنة والجمال، الزاخر بصور الفن والخيال، التي لو أتيح لشاعر أو فنان أن يشهد منها شيئًا لسجل للدنيا منها عجبًا في ملاحم شعرية أو لوحات فنية، ولعل شاعرة سافو[1] لو بعثت لَما تعذر عليها ارتياده ولا تحفت العالم بصورة شعرية رائعة عن هذا الحمام.

أما أحد ابناء دفكاليون[2] فمهما أوتي من صفاقة ووقاحة وجرأة فلن يظفر بأكثر من جملة تسترقها أذناه طالما لم يملك ما ناله السندباد البحري _خاتم سليمان_ الذي يجعل جدران الحمام لناظريه شفافة يرى خلالها ما وراءها من مناظر لا يدرك منها حاليًّا إلا أصوات

(1) سافو شاعرة من شواعر الأساطير اليونانية الشهيرة كانت تعشق بنات جنسها وتتغزل فيهن.

(2) دفكاليون هو الرجل الأول في الأساطير اليونانية الذي أعدته الآلهة لأن يهبط إلى أرض اليونان مع زوجه ووهبتهما المقدرة على إنجاب ذرية كبيرة، فكان إذا ألقى وراءه حجرًا استحال ولدًا وإذا ألقت زوجه حجرًا استحال بنتًا.

الضحك المتواصل والأغاني العذبة التي تتردد وصيحات الطرب والإعجاب والمرح التي تبعث بالابتسام ونظرات الحسرة على وجوه المارين إلى جوار الحمام.

وحدث بعد ظهر يوم من أيام الثلاثاء عندما كانت نبيهة وفاطمة عائدتين بعد الحمام في خطوات متثاقلة بعد تعب ذلك الحمام الساخن أن جذبت نبيهة رفيقتها فجأة وفي عنف قائلة لها:

"انظرى يا فاطمة.. أترين هؤلاء الناس المتجمعين؟

"لعلها مظاهرة..".

كان عليهما اختراق ميدان تجمع فيه نفر من الأسيوطيين، فتوقفتا قليلًا عندما اقتربتا من المتظاهرين لتتأملا طالبًا صغيرًا وقف فوق ظهر عربة نقل محملة بالبضائع ليخطب في الجماهير التي التفت حوله تصغي في إكبار وإجلال.. وفجأة انكسر تحت قدميه صندوق وتحرك الجواد قليلًا في قلق وخوف من الجموع حوله لكن الخطيب استمر يقول:

"تأكدوا يا إخواني وثقوا أبدًا أن من أقدس الواجبات الإنسانية أن نحمي أرض الوطن ونطهرها من المعتدين الآثمين وأن حرية الأمم كحرية الأفراد تؤخذ ولا توهب وما كانت الحرية في يوم من الأيام منحة تمنح.. فلتحفظوا هذه الكلمات عن زعيمنا العظيم".

واهتزت جنبات الميدان بالصيحات المختلطة وارتفعت الأصوات هاتفة: "ليحيا الزعيم"، وعاد الخطيب الشاب يهتف في قوة: "ليحيا الزعيم الجليل".

إنه الزعيم الذي بعثت به العناية الإلهية ليفصح عن آمال البلاد في أنسب الأوقات ويقودها في مدلهم الخطوب والذي كانت كلماته تبلغ أعماق قلوب المصريين جميعًا وتهز أنفسهم هزًّا في جميع أنحاء الوادي.. في المدن الكبرى والمراكز وفي أعماق القرى.. في القصور وفي الأكواخ.. لقد كان الوالد الروحي للشعب بأسره الذي كان يردد اسمه في كل مكان، ولقد استطاع بتلك القوة العظيمة أن يوقظ أمة من سباتها فتهب مطالبة بحقوقها ولقد أصبح مليكًا في الأفئدة وحاكمًا لها غير متوج.

وعاد الخطيب يقول: "والآن أيها الإخوة لا تتفرقوا شيعًا لأن أقوى أسلحتكم الذي ستواجهون به نضالكم الطويل المرير مع الغاصب هو الاتحاد.. الاتحاد هو سلاحكم الوحيد الذي يقودكم إلى النصر.. بالاتحاد سنحقق غايتنا ونبلغ أهدافنا ونرد على مصر أمنا استقلالها المسلوب.. لقد حققت دول أخرى المعجزات بالاتحاد، وبالتفرق بادت أمم أخرى فأطيعوا قادتكم واستعدوا للتضحيات حتى تحققوا آمال مصر فيكم والآن لتهتفوا جميعًا معى: "ليحيا الزعيم الجليل" ورددت الجماهير:

"ليحيا الزعيم الجليل".

"الاستقلال التام أو الموت الزؤام".

"الاستقلال التام أو الموت الزؤام".

"لتحيا مصر حرة".

"لتحيا مصر حرة".

وكانت أصوات الهتافات تتعالى في الجو مدوية كالرعد وتجاوبت جنبات الميدان بالتصفيق الحاد.

وصعد خطيب آخر فوق المنبر المتنقل، لكن المرأتان كانتا قد سارتا في طريقهما وابتعدتا عن المكان قبل أن يبدأ حديثه.

وعندما عاد كامل إلى بيته في المساء أثار دهشته أن يرى نبيهة مستغرقة في أفكارها شاردة اللب ساهمة النظرات، حتى ظن أنها مريضة فشغل بأمرها وما إن فرغ من عشائه حتى بادرها بالسؤال: "ماذا دهاك يا نبيهة؟" فقصت عليه نبأ ما رأت وما سمعت في الصباح وختمت حديثها قائلة:

"ما يحيرني يا سيدي هو ما قاله ذلك الأفندي الفصيح.. لأني لم أفهم ما يعني بكلماته بالضبط".

"أعيدي عليَّ ما سمعتِ أيتها العزيزة".

قالها كامل وهو يفكر مليًّا في الأمر، وكيف حدثت هـذه المظـاهرة دون علم أو تعليمات من لجنة أسيوط الوطنية، لكنه التفـت مـرة ثانيـة إلى نبيهـة وقد علت وجهه ابتسامة مشجعة حتى تتابع الحديث.

"إن هذا الأفندى كان يردد للناس قوله: "إن أقـدس شيء لـديكم ولـدى جميع الناس وأعـز مـا في الوجـود هـو الـوطن" ولقـد سـمعت هـذه الكلمـة الساحرة مرارًا وكنت أعجب بنغمتها كلما كررها وقد لاحظت أن الناس جميعًا كانت تصفق له مؤيدة أقواله وقد قلت لفاطمة: "لا بد أنه على الحـق" لكنـي في الواقع لم أفهم مـاذا يعنـي بكلمـة الـوطن؟ وأي سـحر لهـذه الكلمـة عـلى الناس؟! لقد كنت أعرف أن الوطن هو القرية التي ولدت فيها والتـي أحببتهـا يومًا، لكن يخيل إليَّ أن الناس التي اجتمعـت ليسـت مـن بلـد واحـد ولا مـن قرية واحدة، والزعيم الجليل.. شيء آخر لم أسمع عنه".

شردت نظرات كامل وعـلا وجهـه الأسى وهـو يسـتمع إلى نبيهـة.. لقـد كانت هذه الاسئلة نفسها تـدور بخلـد الألـوف مـن مواطنيـه الـذين يقضـون يومهم في شقاء يحرثون الأرض ويبـذرون الحـب ويجمعـون المحاصـيل تحـت وهـج الشـمس المحرقـة للسـادة أصـحاب الأرض ولأسـيادهم المسـتعمرين الجشعين والذين أبى الاسـتعمار الغاشـم إلا حرمـانهم مـن نـور العلـم وقـبس الحرية.

الوطن.. ذلك الشعار المقدس الذي طالما سارت الملايين تحـت لوائـه إلى ميادين التضحية واستجابة لندائه سبقت الملايـين إلى ميـادين القتـال ومـذابح "مارس" إله الحرب..

كان يكفي أن يعلن صاحب التاج "أن الوطن في خطر" حتى تقبل عليه جماعات الشعب محمومة من الغضب سكرى من الحماس فيسوقها إلى مجازر الحرب وهي لا تكاد تعي من الأمر شيئًا.

لقد كانت هذه الكلمة ذات سحر عجيب يستطيع أن يحيل الحقول الخضراء إلى أراضٍ قاحلة جرداء والمدن العظيمة إلى أنقاض وخرائب ينعق فوقها البوم بينما يفنى في دوامتها ويبيد الشيوخ والمرضى والنساء والأطفال.

وفي مصر طالما خرج الفلاحون باسم الوطن مخلفين الأرض والديار وراءهم ليذودوا عن حمى الوطن كما طالما دافعوا عن السادة أصحاب الإقطاع وهم لا يعلمون تحت ستار الدفاع عن الوطن.

لقد ارتجف كامل لدى سماعه هذا السؤال البسيط توجهه إليه نبيهة الخادمة لما حواه من إخلاص وجرأة، وبعدَ لأيٍّ صمم على ان يحاول إفهامها معنى كلمة "الوطن".. معناها النظري على الأقل فاندفع يقول لها فى حرارة:

"الوطن يا عزيزتي هو جميع الحقول والضياع وجميع المدن والقرى وكل الجبال والوديان وكل الأنهار والقنوات.. وكل ما أنعم به المولى ووهبه العزيز القدير لأمة من الأمم أو شعب من الشعوب أو مجموعة من الناس يدينون عادة بدين واحد ويتحدثون لغة واحدة ولهم تقاليد وعادات واحدة.. فوطننا مثلًا يمتد من شلالات النيل جنوبًا

إلى الإسكندرية شمالًا وبحر السويس.. كل هـذه الأرض تكـون مصرنـا العزيـزة ولا زال وطننا المقدس يرزح تحت نير الاستعمار البغيض ويأبى المستعمر ألا أن يشاركنا في خيرات أرضنا.. ولقد تحملنـا هـذا الظلـم حتـى الآن، لكـن هـا قـد حانت الساعة لنحكم أنفسنا بأنفسنا كدولة مستقلة لها مكانتها بين أمم العالم الحرة.. ومن المؤسف حقًّا أن يأبى علينا بعـض النـاس حريتنـا ولـذا كـان لزامًـا علينا أن نناضل ونكافح كفاحًا مريرًا في سبيل الحرية.. إننا نقف مـع الغاصـب بمفردنا وجهًا لوجه لكن الـلـه القدير سيعاوننا بقدرته ومشيئته عـلى تحقيـق آمالنا.

"أتظن يا سيدي أنهم سيتركوننا نعيش في سلام".

"أجل يا عزيزتي.. سيرغمون على تركنا لمقاديرنـا، لكـن ذلـك لـن يـتم إلا بعد جهاد شـاق.. إن هـؤلاء السـادة المسـتعمرين يحسـبون أنفسـهم الحكـام الدائمين في العـالم، الـذين أرسـلتهم العنايـة الإلهيـة لقيـادة الـدنيا وللاحتفـاظ بأرضنا المقدسة لحساب جيوبهم المتخمة.. لكنهم يخطئون في ذلك".

"إذن فكـل هـؤلاء المسـتعمرين الـذين سـاعدتهم الظـروف يومًـا عـلى استغلال أراضٍ في غير بلادهم لا بد أن يتركوها في يوم آخر".

قالتها نبيهة وكأنها تحدث نفسها وقد سبح خيالها فيما قالـه لهـا كامـل من كلمات، أما هو فكان يتحدث إلى نفسه: "أترى هل جانبت الصـواب فـيما قلت؟ وهل أدركت هي معنى ما شرحت؟!".

وفي نفس اليوم ذهب كامل ليجتمع مع زملائه أعضاء لجنة أسيوط في منزل أحدهم وكان لا يزال محنقًا ساخطًا لحدوث تلك المظاهرة بدون علم اللجنة، لأن معنى ذلك هو وجود عناصر غير مسئولة تعمل في الخفاء لحساب آخرين غير مصلحة الوطن، وقد يعني أيضًا أن اللجنة فقدت سلطتها وسيطرتها على المواطنين في الإقليم.

وما إن أَهلَّ على مكان الاجتماع حتى استقبل بترحاب حار وتقدير عظيم من زملائه الذين يعرفون له فضله وخدماته الجليلة في سبيل الوطن.

لكن لم يكن الجميع في حبه وتقديره سواء بل كانت هناك أقلية تسخر من إخلاصه وإيمانه بالقضية ومحبة الشعب له وسلوكه المستقيم القويم الذي أكسبه مكانة بين الناس جعلتهم يحقدون عليه.

وافتتح الرئيس الاجتماع بكلمة جاء فيها: "أيها الإخوة الكرام إن كل بحر يخفي تحت سطحه الكثير من الصخور، بل وأحيانًا سلاسل من هذه الصخور تشبه الجزر وتقع قريبة جدًّا من سطح الماء وتعرض الملاحة لأخطار جسيمة، وكذلك كل كفاح لا بد أن يواجه الكثير من العقبات.. فإذا كانت الإرادة لها المكان الأول في صراع الفرد مع الحياة فإن الجماهير تسيطر عليها العاطفة والوجدان، وكثيرًا ما تعوزها الحكمة في أفعالها، وكثيرًا ما تخدع عن هدفها النبيل بفعل الشائعات المغرضة والإيحاء الآثم الشرير الذي قد يؤدي بنا إلى

أوخم العواقب.. لا شك أن الجماهير في حالة قلق خطرة ولعل الصبر قد نفد من النفوس، وهذا قد يؤدي إلى انفجار مروع إثر أي شرارة صغيرة.. ولقد حدثت فعلًا أحداث مؤسفة في بعض الأقاليم الأخرى وأصبحت الحالة تنذر بالخطر..

إننا في هذه اللحظات التاريخية يجب أن نتذرع بالحزم واليقظة والبصيرة الواعية وأن لا نترك الأمر للأهواء أو لعواطفنا تسيِّرنا كيف شاءت.. إن أقل اضطراب أو هوادة في إدارة الحركة قد يخرج بها عن سواء السبيل.. وإني بالنيابة عنكم وبالأصالة عن نفسي أدعو الأستاذ كامل ليدلي لنا برأيه".

وبغير تردد نهض المحامي الشاب قائلًا: "إخواني إني دائمًا أفضل مواجهة الواقع وبسط الأمور في صراحة وإخلاص لا سيما إذا كان الأمر يتعلق بأرواح بريئة عزيزة علينا.

إخواني..

إن هناك نشاطًا آخر يبذل في نفس الوقت الذي ننظم فيه حركتنا.. إن هذا النشاط يدبر باسم الوطنية وتحت ستارٍ من القومية الزائفة لكنه بعيد كل البعد عن القصد الشريف ولا يقصد صانعوه إلا إشاعة الفوضى والاضطراب في الصفوف..

وما يحز في النفس أن نرى إخوانًا لنا يسوؤهم نجاحنا ويغيظهم توفيقنا.. ولماذا تضيق صدور أناس بتقدمنا نحو تحقيق أهداف

الوطن؟ ولماذا ينفس علينا البعض هذا النجاح وميدان العمل مفتوح للجميع؟

إنه ليؤسفني أن أقرر أمامكم أن هذه الفئة القليلة الحاسدة الحاقدة تعمل على إغراق السفينة التي نسعى جميعًا جهدنا لإيصالها إلى بر السلام.

قد يكون شيء من هذا قد حدث في المديريات الأخرى، لكن في أسيوط بالذات قد بلغ الأمر حدًّا خطرًا يقتضينا المزيد من اليقظة والحذر والحيطة التامة، حتى لا يفلت الزمام من أيديكم ويستحيل الأمر إلى فوضى لا ضابط لها، لن يفيد منها إلا أعداء القضية ولن يكون لها من سبب إلا سعي فئة قليلة لإرضاء روح الحقد والحسد في نفوسها.

إن النذر قريبة وروح القلق بادية في كل مكان، وبودي لو أن كلًّا منا كرس نشاطه لإظهار الحقائق وتوضيحها للجماهير في الاجتماعات العامة.. فإن منعت ففي المساجد والكنائس وفي المتاجر والبيوت، وفي كل مكان اجتمع فيه مصري واحد أو أكثر، يجب علينا أن نعلم الجماهير ما لها وما عليها.. إن الوطن في حاجة إلى جهد بنيه جميعًا وإلى العمل السريع الحاسم، وإننا في لحظات خطيرة وعلينا واجبات جسيمة تتطلب منا المزيد من التضحية وإنكار الذات.. فلندع أطماعنا الشخصية ومنافعنا الذاتية جانبًا ولو إلى حين.. إلى أن تحقق للبلاد أمانيها".

وهنا نهض أحد الحاقدين الموتورين المتظاهرين بالوطنية المتخذين من القومية تجارة ومغنمًا قائلًا:

"إنه ليسرنا أن يحدد حضرة الخطيب أقواله ويبين مراميه ويوضح لنا هذه الألغاز والأحاجي بل ويسعدنا أن يحدد أسماء هؤلاء المتهمين الذين يعنيهم بكلماته".

"إني لا أتهم أحدًا وكل ما أرجوه أن نكون أكثر يقظة وحزمًا في عملنا ولعله بلغ مسامعكم ما حدث أخيرًا في المدينة دون علم منا أو استشارتنا أو تعليمات منا توحي بذلك".

وسرت همهمة بين الحاضرين فصفق الرئيس بيديه قائلًا:

"السكون أيها الإخوان.. السكون ولنتذرع جميعًا بالصبر وإنا نرجو المتكلمين إذا كان لديهم اقتراحات أن يتقدموا بها إلى اللجنة لبحثها وعلينا أن نواجه الحقائق بشجاعة وألا نغرق في التفاؤل، فما كان في الدنيا عمل عظيم ليتم دون أن تعترض سبيله عقبات وعقبات.. إن الشر أصيل في الطبيعة البشرية.

ولتعلموا أيها الإخوان أن تعليمات اللجنة الوطنية في القاهرة أن يُضرب الطلبة جميعهم في يوم واحد وأن يكون الإضراب سلميًّا لا عنف فيه، إنما للاحتجاج على عدوان المستعمرين وطبعًا حتمت اللجنة أن يكون إضرابنا سلميًّا لأننا لا نملك الآن الوسائل العملية للهجوم.

ولـيكن مفهومًـا أن هـذا الاحتجـاج الجماعـي لا يجـوز الهتـاف فيـه للأشخاص ويجب تنظيم المضربين تنظيمًا تامًّا لأن هذا الإضراب سيشمل أنحاء القطر المصري.

وإني أكرر ما سبق أن قلتـه مـرارًا مـن أن الطاعـة واجبـة وهـي أسـاس النظام، والنظام هو سر النجاح في كل عمل، ولعلكم جميعًا علمـتم بالمظـاهرة التي أشار إليها الأستاذ كامل في حديثه.. لقد كانـت مظـاهرة هزيلـة لم يحـس بها أحد لكنها أضرت بنا وعطلت بعض الناس عن أعمالهم وليس من المصلحة في شيء، بل هو مـن المسـتحيل أن نطلـب إلى أصـحاب الأعـمال أو العـمال أن يتوقفوا عن أداء أعمالهم كل يوم..".

واستمرت الجلسة والنقاش إلى مـا بعـد منتصـف الليـل ولسـوء الحـظ تحققت كل مخاوف الأستاذ كامـل بـأسرع مـما كـان يظـن، وظهـرت حركـات متفرقة غير منتظمة بتدبير عناصر غير مسـئولة لا علاقـة لهـا باللجنـة المحليـة وكان السؤال عن مصادر هذه الحركات محل بحث طويل.

وهكـذا تتابعـت الحـوادث الواحـدة فى إثـر الأخـرى وكـأن القـدر كـان لأعمالهم بالمرصاد.

وأخـيرًا قطعـت المواصـلات بجميـع وسـائلها بـين أسـيوط وسـائر أنحـاء القطـر وأصـبحت البلـدة في معـزل عـن العـالم وخلعـت قضـبان

السكة الحديدية في غير موضع ونزعت بعض أعمدة البرق والتليفون وأصبح المرء لا يمكن له أن يتكهن بما سيأتي به الغد.

وبعد بضعة أيام وصلت فرقة من الجنود الهنود تحت قيادة بعض الضباط الإنجليز واتخذت مبنى المدرسة الثانوية الأميرية معسكرًا لها، واعتبرت موقعها بين خزان أسيوط ومنبع الترعة الإبراهيمية خير المواقع للدفاع والهجوم.

وذاعت الشائعات المزعجة بين الناس، وكل يوم كانت الألسنة تتناقل منها المزيد وأصبح معروفًا أن قوة الشرطة المحلية تعطف على الثائرين.

وشاع الذعر بين الأجانب نتيجة للدعاية الاستعمارية المسمومة، فباتوا على أنفسهم وأموالهم وجلين بل غادر بعضهم المدينة سعيًا وراء الأمن والطمأنينة رغم تلك الأعوام الطوال التي عاشوها ينعمون بكرم ضيافة المصريين.

وتسامع الناس بأنباء مختلفة من أنحاء القطر، فيومًا علموا بأن جميع السلطات في مديرية المنيا قد آلت إلى حكومة الثورة المؤقتة وفي يوم آخر تناقل الناس نبأ تلك السفينة الحربية المزودة بالمدفعية والتى أرسلها الأعداء في النيل لتأديب الثوار في الصعيد.

أما الأستاذ كامل فكان يشك في قيمة أعمال العنف وفي جدوى قطع خطوط المواصلات بل كان يستهجن فكرة إرسال البعوث إلى

الخارج لشرح القضية الوطنية والدعاية لها بين قوم يأتمرون على الشرق ويبيتون له أسوأ النوايا، وقد أسف أبلغ الأسف عندما عجز مرة ثانية عن الاتصال باللجنة المركزية في القاهرة.

وكان لا يعود إلى بيته إلا في ساعة متأخرة من الليل وقد نال منه التعب كل منال بعد يوم من العمل الذي لا يفتر لحظة.. لقد أصبح كل وقته مكرسًا لقضية بلاده وللعمل على الوصول إلى شاطئ الأمان وقيادة الثورة في منطقته وسط الأهواء المتباينة والأطماع الدنيئة والسير بها في طريقها السوي الأمين.. لكن وا أسفاه لقد ذهبت جهوده فيما اعتقد هو سدًى.

أما نبيهة فكانت ترقب جهود سيدها بحدب وعطف وكانت تشفق عليه من جهده المتواصل وكانت الساعات التي يتأخر فيها كامل عن موعده تقضيها نبيهة في قلق واضطراب وتوجس خيفة مما يخبئه القدر من مفاجآت.

ولم تكن نبيهة في بادئ الأمر تدرك شيئًا ذا بال مما يدور حولها، ولذلك كانت تعجب بل وأحيانًا تستهجن أن يترك الرجل الأوقات التي خصتها الطبيعة لراحة الإنسان ليقضيها في تعب ونصب لا سيما وقد حرمها هذا العمل لذة الأمن والاستسلام والطمأنينة التي كانت تسعد فيها بين ذراعي كامل.

ثم أخذت أسئلتها كل يوم تتزايد ونظرتها تبعًا لذلك تتسع شيئًا فشيئًا لاستيعاب الأحداث حولها.. لقد سألته أول ما سألته عن معنى

الوطن فشرح لها ذلك على قدر استطاعته ثم سألته: "ما الاستعمار؟" فأجابها: "أن يغتصب الإنسان بلاد أخيه الإنسان ويشاركه رزقه ويسخره لأهوائه ويسلبه حريته".

فسألته في يوم آخر: "وما هي الحرية؟" فقال لها: "أن ينعم الإنسان بحقه في أن يعتنق ما يشاء من الديانات وفي أن يقول ما يراه صوابًا وفي أن يذهب أينما شاء وفي أن يعيش مطمئنًا على ماله وعرضه".

وفي يوم ثالث سألته: وماذا فعل الإنجليز لنا حتى نكرههم كل هذه الكراهية؟" فأجابها: "الإنجليز اعتدوا على بلادنا ودنسوا أرضنا بجنودهم ومخازيهم وأغلقوا مدارسنا وسرحوا جيشنا وأغلقوا مصانعنا وأحالوا مصر إلى مزرعة تنتج لهم المحاصيل ليشتروها بأبخس الأثمان ثم يعيدوها إلينا مصنوعة بأغلى الأثمان.. ألا تذكري يا نبيهة؟ منذ عام واحد لم يكن في البلاد زجاجة مصباح وكان الناس يكسرون زجاجات الماء أو الدواء ليضعوها فوق المصابيح؟ ألا تذكري يا نبيهة، كيف كانت المنسوجات غالية وقلما يجدها الإنسان، وهي مصنوعة من القطن المصري الرخيص؟! لم يعد في بلادنا مصنع واحد للنسيج ولا للزجاج ولا لأي شيء آخر.. لقد أحالوا المصريين إلى عبيد لأصحاب المصانع الإنجليز؟! وأخيرًا لعلك سمعت بحوادث اعتداء جنودهم على أعراضنا وانتهاكهم لحرمات البيوت في المدن والقرى.. فكيف لا نكرههم؟!".

وسألته مرة أخرى: "وماذا نستطيع أن نفعل ولا حول لنا ولا قوة؟" فقال لها: "يمكننا أن نفعل الكثير حتى يغادروا بلادنا.. نقاطع بضائعهم فتغلق مصانعهم ويتشرد عمالهم.. يمكننا أن نحاربهم بكل سلاح.. سنحيل كل شبر من مصر إلى جحيم يصطلون بنيرانه.. سنقتل كل إنجليزى نعثر عليه في أي بقعة من مصر.. ستكون مصر كلها جيشًا يحاربهم أينما كانوا.. ولن نمكنهم من أن ينالوا طعامًا أو أي سلعة من بلادنا.. سنشعرهم أن في بقائهم في مصر خسارة فادحة لا تعادل ما يربحون من هذا الاحتلال".

وبدأت نبيهة تشعر أن عليها واجبًا، إن لم يكن بالمشاركة في العمل فبالوقوف إلى جانب ذلك المجاهد الذي يفني كل حياته في سبيل بلاده، وأصبحت تجد لذة في الاستماع إلى حديثه متى عاد إلى البيت، تنسيها ما عانته من آلام الوحدة والوحشة في ساعات الانتظار الطويلة.

لكن الرحلة كانت طويلة والتضحيات مطلوبة دائمًا والحقيقة أن نبيهة لم تشك ولم تتململ وساهمت في التضحية في حدود إمكانياتها، إلا أنها أحيانًا كانت تحس وطأة الوحدة قاسية عليها ثقيلة على قلبها وأحيانًا أخرى كانت تجد العزاء في ذكرياتها القديمة والحنين إلى الأيام الخوالي التي عاشتها إلى جوار سيدها السابق.

وخلال تلك الساعات الطويلة من الانتظار مع انعدام وسائل التسلية كانت لا تجد شيئًا تقطع به الوقت سوى التفكر في حياتها

ومصيرها في هذا الوجود، وكثيرًا ما ساءلت نفسها عن مكانتها في هذا البيت؟! وحقيقة مشاعرها تجاه كامل؟! لكنها كانت دائمًا تخفق في الحصول على جواب شافٍ حاسم.

لقد استبعدت الحب من حسابها.. لأنها لم تحبه وقلبها لا يزداد خفقانه لدى رؤيته كما كانت تسرع ضرباته عندما تلتقي نظراتها مع نظرات الحكمدار..

ومع ذلك فهي تدرك أن المحامي يعلق الكثير على وجودها، وتحس عطفه الكبير عليها ومعاملته الكريمة التي أسرتها وطوقت جيدها بالمعروف ولكنها تشكو فَقْدَ تلك الشعلة المقدسة التي تلهب العواطف وتدفئ الحديث وتجعل من الكلمات نغمًا عذبًا.

ولعلنا نلتمس العذر للمحامي من السن أو من تلك الحياة المحافظة التي عاش عمره مقيدًا بقيودها لكن نبيهة _والكثيرات مثلها_ لا يقنعن من الحياة بهذه الدعة والسكون والعيشة السهلة الهنية.. إنها تريد الحيوية الفياضة الخالدة والحياة العارمة المليئة بالدفء وحرارة العاطفة ولذة المغامرة أحيانًا..

لم تكن نبيهة تنفر من مداعباته بل كانت تشجعها رغم أنها لم يكن لها الأثر الذي تحلم به، وكم تمنت لو أنه سمح لها بمعاملته على اعتبار أنه والدها أو أخوها الأكبر، لكانت مشاعرها أكثر إخلاصًا له وإحساسها أقرب إلى الطبيعة.

إنها تعلم أنها أسلمت نفسها له بـنفس السـهولة التـي استسـلمت بهـا للحكمدار لكن شتان بين الحالتين.. لقد أحبت الأخير لكن كامـل.. لقـد أحنـت الرأس بـين يديـه واستسـلمت للظـروف والحاجـة القـاهرة وأغمضـت عينيهـا كالفراشة التي تندفع نحو الـلـهب، وهـي تحسـب أنهـا بصـدد النجـاة.. وقـد تكون النار منبعثة من شمعة أو من مصباح أو مـن حريـق كبـير.. إنهـا سـترد حتمًا هلاكها ولن يبكيها أحد.

ومع ذلك فنبيهة لا تتردد في الاعتراف بأن جميع حاجاتها في هذا المنـزل تقضى لأول إشارة أو تلمـيح.. لكنهـا تريـد شـيئًا آخـر.. تريـد أن يعلـم النـاس مكانها السعيد من المجتمع.. لأن السعادة التـي لا يقـدرها المجتمـع والتـي لا يحس بها إلا أصحابها داخل أسوار المعتقل لا قيمة لها ولن تكون سعادة..

لم يكن يرضي نبيهة أن تعتزل العالم وأن تعيش في قفص ولو من الذهب واللآلئ.. ولم يكـن معهـا في حياتهـا الآن سـوى فاطمـة التـي لا تـرضي روحهـا المتوثب ومع ذلك فقـد كانـت هـي الوسـيلة الوحيـدة لاتصـال نبيهـة بالعـالم الخارجي.. نبيهة ذات الطموح الذي لا يمكن لواحدة مثل فاطمة أن تشبعه.

وكم من مرة أصابتها الحيرة كلما ذكرت ذلك الحديث الذي حـدثت بـه كامل ذات مساء قائلة له وقد شرد ذهنها في الآفاق المحيطة بها: "هـل فكـرت يا سيدي ولو مرة واحدة في العواقب فيما لو قـدر الـلـــه لـك أن يهبـك نعمـة الأطفال؟".

"كلام فارغ.. خرافات.. إن إنجاب الأطفال في نظرى يعدل الزواج تمامًا والزواج وسيلة من وسائل الحياة التي أمقتها ورباط الزواج وما يتبعه من قيود أو تعاون، كما يحلو للبعض أن يسميها إن هي إلا أشياء بالية وآراء عتيقة".

"لكنك لا تتخيل من الزواج إلا إنجاب الأطفال؟".

"نعم.. أطفال شرعيون".

"وما الفرق بين الأطفال الشرعيين وغيرهم؟".

ولم يجد المحامي جوابًا لهذا السؤال الجريء المفاجئ فأطرق مليًّا وآثر الصمت العميق.

إن ذكرى هذا الحوار القصير كلما مرت بخاطرها أحزنتها وأورثتها الهم والحيرة والألم الممض العميق، لقد عذبتها ساعات الوحدة الطويلة.. تلك الساعات التي لم يكن يتخللها شيء سوى لحظات قصار يحضر فيها المحامي لتناول طعامه أثناء النهار، وقد لا يحضر فلا تحس بوجوده إلا بعد منتصف الليل عندما يعود من عمله واجتماعاته منهكًا خائر القوى..

أخيرًا ضاقت نبيهة ذرعًا بحياتها ووحدتها المملة القاتلة حتى أنها فكرت غير مرة في أن تهجر كل هذا المتاع في غير رجعة وتنطلق إلى الفضاء الفسيح وتتنسم هواء آخر وتعيش في جو جديد، مهما

كان لونه فإنه سيكون أبهج لديها من هـذه الحيـاة المضـجرة التـي تمضي عـلى وتـيرة واحـدة فتبـدو كالسـجن الرهيـب رغـم مـا حوتـه مـن أسـباب المتعـة والرفاهية.. وهو في واقع الأمر سجن لا غاية من ورائه لأنه لـن يهـذب مجرمًـا ولن يصل بصاحبته إلى تحقيق أمل منشود.

لكن أحداث الثورة تتعاقب على سمعها ومشاهدها تمر أمامها فتشغلها أحيانًا عمَّا هي فيه من عذاب وتستغرق بعض تفكيرها، وهي تجد لـذة كبـيرة وسلوى في الاستماع إلى أنباء الثورة يأتيها بها الشيخ علي بين حين وآخر، فـذات يوم أخبرها عن حادث مروع وقع في إحدى محطات السكك الحديدية القريبة من أسيوط، وقتل فيه خمسة من الجنود البريطانيين في اشتباك مع الثوار، وقد ختم الشيخ علي قصـته بتعليـق صـغير قـال فيـه: "لقـد رأيـت هـؤلاء الجنـود بعيني، إنهم صـغار.. شـباب غـض، حمـر الوجـوه وأحـدهم لم يتجـاوز عمـره السادسة عشرة في جمال الوردة ونضرة الربيع..؟!".

فندت عن نبيهة شهقة خافتـه نمـت عـن الألم لهـؤلاء الضـحايا الأبريـاء وأردفت قائلة: "لعن الـلـه من أغواهم وأرسل بهم بعيدًا عن بلادهم ليقتلـوا.. لعنة الـلـه على إبليس وألهم أمهاتهم الصبر".

أخيرًا طلع على أسيوط فجر الأحد الثالـث والعشريـن مـن شـهر مـارس سنة 1919 ليسطر في تاريخ المدينة صفحة دامية مروعة.

كان قد تحدد ذلك اليوم للإضراب العام ورأت اللجان الفرعية في أنحاء المديرية أن ترسل مندوبين عنها ليشتركوا في مظاهرات أسيوط، عاصمة الإقليم وكان العدد يتزايد كلما اقتربت المواكب من أسيوط وانضم إلى هذه المواكب بعض عربان الصحراء الذين يقيمون قريبًا من حدود أسيوط ووصلت الأنباء إلى الهيئة الحكومية في الإقليم، فخرجت بقضها وقضيضها وتسلح رجال الشرطة بالبنادق والسونكي كما خرج معهم رجال: "بلوك الخفر" وتربصوا عند مداخل المدينة.

ولم يكن القادمون عزلًا من السلاح جميعًا بل كان بعضهم يحمل البنادق والآخرون يحملون المسدسات وبعضهم الآخر يحملون العصي الغليظة، وكانوا يسيرون جماعات جماعات متقاربة تمثل كل جماعة منهم القرية القادمة منها ولم يكفوا لحظة واحدة عن ترديد شعار الحركة القومية يومئذ: "يحيا الوطن.. يحيا الوطن".

عندما وصلت تلك الجموع الضخمة إلى مواجهة رجال الحكومة الذين وقفوا على أهبة الاستعداد للمقاومة تقدم بعض المتزعمين لهم ليتحدثوا إلى المسئولين من رجال الحكومة، ودامت المفاوضات بينهم ما يقرب من الساعة ولَما رأى وكيل المديرية والحكمدار وعمدة المدينة أنه لا قبل لهم _بقوة البوليس المحدودة الموجودة معهم_ بمقاومة تلك الجموع المصرة على دخول المدينة للاشتراك في إعلان احتجاجهم على الاستعمار الغاشم، سمحوا لهم

بـدخول المدينـة بعـد أن تعهـد قـادتهم بالمحافظـة عـلى النظـام وأن تكـون المظاهرة سلمية يغادرون بعدها المدينة إلى بلادهم المختلفة.

وانطلقت الجموع إلى قلـب المدينـة وقـد ارتفعـت الحنـاجر بصـيحات الفرح والنصر وانضـم إليهـا الألـوف مـن أهـل المدينـة وكلـما انضـمت إلـيهم جماعة جديدة ارتفعت الهتافات المدوية تردد الشعار المقدس "يحيـا الـوطن" كما ارتفعت الأيدي بما تحمل من مختلف أنواع الأسلحة كالسـيوف والخنـاجر والسكاكين والعصي والبنادق وغيرها من كل أنواع الأسلحة البدائية البسيطة.

ومما كان يزيد المنظر روعة على روعة تلك الهتافات التي كانـت تـتردد من شرفات المنازل ومن خلـف "المشربيـات" والشـبابيك، تنـادي مـع الهـاتفين بأصوات ناعمة منغمة: "يحيا الوطن".

لقد سمعت أسيوط لأول مرة في حياتها عن اشتراك المرأة مع الرجـل في مشاعره الوطنية وأحست المرأة أن عليها واجبًا نحو بلادها وأنها مسـئولة عـن عمل شيء في سبيل الوطن، وبدأت تتحرك نحو العمل فأعلنـت عـن وجودهـا بتلك الهتافات الخجلى من خلف الحجب أول ما أعلنت.

ووصل المتظاهرون إلى قلب المدينة الثائرة المحمومـة وهمـت الجمـوع على التحول إلى مبنـى المديريـة عـلى النيـل حيـث تنتهـي المظـاهرة كـما هـو متفـق عليـه، لكـن نـداء لم يـدرِ أحـد مصـدره نـادى بضرورة اشـتراك

قوات البوليس وبلوك الخفر في إعلان مشاعرهم الوطنية، وسرى النداء في الجموع "إلى البندر.. إلى البندر.." "نموت فداء للوطن.. مصر للمصريين.. إلى البندر فالكل سواء في سبيل الوطن".

تحركت الجموع الزاخرة ثانية إلى داخل المدينة وعندما بلغت الطلائع مبنى البندر العتيق كان معظم الضباط غير موجودين بالبندر وكان على قائد القوة الموجودة أن يتخذ قراره السريع بمفرده..

لقد كان الجنود والخفراء من تلك القرى وكان المهاجمون من أهليهم وعشيرتهم وقد وقف المتظاهرون قليلًا أمام البندر يستمعون إلى بعض الكلمات الوطنية يلقيها خطباؤهم، أعقبها إطلاق بعض الأعيرة النارية في الهواء ثم الهجوم على مبنى الحكومة..

لقد كانت المقاومة ضعيفة جدًّا من جانب البوليس لضآلة العدد أمام ذلك الخضم الهائل من الجموع البشرية التي اختلط بصفوفها بعض المجرمين ومن لا خلاق لهم، الذين سعوا إلى تشويه الحركة أو النهازين للفرص الذين اغتنموا المظاهرة لاقتناص السلائب والأغنام.

استولى المتظاهرون على جميع الأسلحة الموجودة في البندر وقد فر أمام جحافلهم بعض الضباط ورجال الحفظ في أدق اللحظات التي تحتاج إلى شجاعتهم وحسن قيامهم بواجبهم.

أغرى هذا النصر السهل جموع الثائرين وأطمعهم بانتصارات أخرى أكبر فعادوا أدراجهم تحدوهم الآمال الكبار واتجهوا صوب النهر قاصدين مبنى المديرية.

وانضم إلى المظاهرة _لأول مرة في تاريخ أسيوط_ المئات من النساء فازدادت الحماسة وعلت الهتافات المدوية في الجو.

ومما كان يزيد في جمال المنظر وروعته أولئك الأطفال الصغار الذين انضموا إلى المتظاهرين وكانت ترتفع من حناجرهم الصغيرة تلك الهتافات الخالدة: "يحيا الوطن.. يحيا الوطن.. نموت فداء مصر".

وفجأة وبدون سابق ترتيب أو إنذار سرت هتافات خافتة ما لبثت أن أصبحت زئيرًا مروعًا يزلزل أرجاء المدينة: "الموت للإنجليز.. الموت للهندوس.. لتسقط بريطانيا.. الفناء للغاصب".

وتحول المتظاهرون عن هدفهم واتجوا إلى الإبراهيمية بجموعهم التي استولت عليها حمى الوطنية والعاطفة القومية ولم تعد تعي شيئًا سوى الرغبة في القضاء على تلك القوة الغاشمة التي تمثل الاستعمار في أسيوط دون تفكير أو تقدير لما وراء ذلك، ودون تدبير لأمر المدينة فيما سيعقب اليوم من أيام، إنما هو ارتجال أو فعل فاعل غير مسئول.

ولم تتوان القوة الموجودة في العمل للدفاع عن نفسها ففتحت الهويس القائم على الترعة الإبراهيمية حتى تقطع الطريق بين المدينة والمعسكر.

أهاج ذلك جموع الثائرين وغلت مراجل الحقد في النفوس وانطلقت رصاصة طائشة في الهواء فلم يجاوبها شيء من الجانب الآخر للترعة الذي خيم عليه السكون.

وفي تلك الأثناء كان الإنجليز والهنود قد وزعوا قوتهم فوق أسطح المدرسة والاستراحات وفوق الأشجار الضخمة الموجودة في الحديقة المواجهة للكوبري مباشرة.

لقد أطمع السكون وعدم الرد على الطلقة الطائشة المتظاهرين فاندفعوا يعبرون النهر في حماس متهور فوق بوابات الهويس، وهي بوابات عريضة تسمح للعمال بالوقوف عليها للقيام بعملهم وقت السلم في فتحها وقفلها لتنظيم الملاحة بين النهر والقناة.

وما إن شاهد الأعداء ذلك حتى بدأ إطلاق النار وتجاوب الإطلاق من الجانبين بينما كان يسرع النفر الذين يحاولون عبور الترعة لقفل الهويس وإعادة الطريق العادي بين أسيوط والوليدية لتستطيع تلك الجموع الحاشدة العبور والاشتراك في المعركة، لكن انطلقت طلقات المدافع الرشاشة فجأة تحصد العابرين حصدًا، وفي لحظات كان جميع البواسل من العابرين على الهويس أجسادًا هامدة في أعماق النهر أو جرحى تصارع الموت بين أمواج النيل.

ودهش المهاجمون لدى سماعهم لهذه الآلة الجهنمية الجديدة وذعروا لقوتها وسرعة طلقاتها وتعددها فتراجعوا إلى الوراء وأخذ بعضهم في التسلل إلى داخل المدينة ثانية.

وعندما تبين الأعداء أن الجماهير ابتعدت أوقفوا مدافعهم حرصًا على الذخيرة التي كانوا يخافون عليها ويعملون حسابهم للحصار المضروب حولهم.

وبعد لحظات عادت الجماهير لكن لا لتقاتل مكشوفة للأعداء بل تحصنت خلف أسوار المدرسة الأمريكية والمحكمة ومستشفى الرمد وفوق الأشجار العالية القريبة من القناة واستؤنف إطلاق النار مرة أخرى على كل شبح متحرك على الضفة الأخرى للقناة.

واندفعت جموع أخرى تعبر النهر في الزوارق بينما أقبلت جموع جديدة من الشرق، أي من خلف القوة المعادية، وفي نفس الوقت كانت هناك جماهير تتجمع في الوليدية لتعبر النهر من الجهة الشمالية للاشتراك في المعركة.

واستمر إطلاق النار من الجانبين وأخذت المدافع المعادية تقذف حممها على جموع الفلاحين المصريين وأعادت تلك القوة الهندية الإنجليزية توزيع أفرادها على نحو جديد لصد تلك الهجمات المتفرقة من الشمال والجنوب والشرق والغرب وأخذت المعركة صورة جديدة لمعركة حربية بين هؤلاء المواطنين بأسلحتهم البسيطة الهزيلة وتلك القوة المدربة بأسلحتها الحديثة الفتاكة.

وبينما هذه المعركة دائرة كانت هناك جموع أخرى مدفوعة بأيد أثيمة خائنة تعبث بممتلكات البريطانيين في المدينة وهي ترى في ذلك انتقامًا للقتلى الأبرياء الذين سقطوا صرعى في ميدان الشرف وفي سبيل الوطن وفي مقاومة الطغيان والاستعباد.. غير حاسبة أن في هذا الاعتداء ضررًا بالحركة وتشويهًا لجمالها الرائع.

أما قوة الأمن في المدينة فلم تكن بحال كافية لمواجهة هذا الحدث المفاجئ الذى لم يخطر ببال أحد قط.

وظهر كامل في الميدان يحاول أن يمنع هذه الاعتداءات على المحال التجارية وبيوت الأعمال، فبدا أمام الجماهير كمثال للرجعية المتأخرة، أو هكذا وصمه المغرضون الذين يسعون لتشويه الحركة وصدقهم المخلصون الأبرياء والذين لم تعرف ضمائرهم الغش والخداع.

حاول ثانية أن يدفع بأعيان المدينة للظهور في الميدان وتنظيم هذه الحركة ولمنع الاعتداء على الأموال وتوجهيها إلى الوجهة الصحيحة، لكن هؤلاء جبنوا ولم يظهروا وآثروا العافية والسلامة وحراسة أموالهم.

وعاد كامل وحده يحاول التهدئة في قلب المدينة، لكنه قوبل بالسخرية والاستهزاء بل وحاول بعضهم الاعتداء عليه فعاد أدراجه إلى بيته بقلب حزين ونفس موزعة لا تكاد تستقر على حال.

لكنه ما كاد يصل إلى بيته حتى قابلته نبيهة بوجه حائل اللون تكاد الدموع تطفر من عينيها من هول ما عانت في وحدتها في ذلك اليوم المرير..

لقد غادر الطاهي من الصباح الباكر ولم يعد، ولم يحضر لها شيئًا للطهي، أما فاطمة فلم تحضر إلى البيت منذ يومين، وهي تعلم مدى

متاعب سيدها وتخشى أن يعود إلى المنزل فلا يجد شيئًا لطعامه.. فتضيف بذلك سببًا جديدًا إلى آلامه.

لكنه ما كاد يراها على حالها حتى راعته صفرتها فسألها: "أخائفة أنت يا عزيزتي؟" فقالت له وهي تغالب دموعها: "ماذا حدث في الخارج أيها الحبيب؟" فضمها إلى صدره وطبع قبلة ملؤها الحنان على جبينها وربت على ظهرها يطمئنها وعاد يقول:

"لم يحدث شيئ خطير.. إننا نشهد قيام الثورة ولو أننا في أسيوط تنقصنا القيادة النزيهة".

"كم كان عدد الموتى والجرحى؟ لقد مر أمام البيت كثيرون يحملهم ذووهم أو الثائرون.. لكن لا بد أن ننتصر بعد كل هذه التضحيات".

"أجل سننتصر بمشيئة الله تعالى..".

وعلت وجهه ابتسامة حزينة وهو يفكر في المصير.. أحقًّا سننتصر؟ وهبنا تغلبنا في أسيوط على هذه القوة الهندية؟! لكن ماذا سيحدث في الأقاليم الأخرى؟ وكيف نقاوم سبيل الإمدادات التي تصل من الخارج بلا انقطاع؟! إن الأمر بين يدي الله.

لكن أصوات الجماهير لا تنقطع عن مسمعيه تردد هتافاتها: "يحيا الوطن"، وكل الجموع متجهة إلى ميدان المعركة التي لم تنته بعد.

وما إن أقبل المساء حتى أبصر لهيب النيران يندلع من كل مكان في المدينة.. من حظائر الحكومة والبندر وبعض المحلات التجارية.. ومما زاد الموقف دقه وتعقيدًا أن محطة الكهرباء توقفت عن العمل لإضراب موظفيها فبدت المدينة في ظلام دامس مخيف وأعطت الفرصة الكاملة لبعض اللصوص للسطو في أمان على بعض البيوت والمتاجر.

وأصبح شبح الفوضى يهدد المدينة حتى أن بعض الأعيان والإقطاعيين الأثرياء باتوا يخافون على أرواحهم وأموالهم أن تنقلب الثورة ضدهم وضد ثرائهم الفاحش إلى جوار ما تعانيه جموع الشعب من فقر مدقع، لا سيما وأحداث الثورة في مختلف بقاع العالم كنت قريبة من الأذهان.. فباتوا ليلتهم في أوهام مفزعة بينما إخوانهم في الوطنية كانوا يقدمون القرابين من دمائهم على مذبح مصر.

أما كامل فقد قضى ليلته في عذاب متصل.. إنه يكره الفوضى بطبعه فبات يتحسر على ما حدث وهو يرى أن بين يديه قوة شعبية هائلة تذهب هباء، وكان في الإمكان إفادة القضية الوطنية منها أكبر الفائدة لو أنها وجدت القيادة النزيهة ولم تنحرف بها عن الطريق تلك النفوس المغرضة الدنيئة.

ولم يستطيع صبرًا فغادر بيته ونزل ثانية إلى ميدان المعركة، يحاول أن ينظم شيئًا أو أن يسعف جريحًا أو يواسي مصابًا، وما إن

نفد ما معه من ضمادات وأدوية حتى توجه إلى قلب المدينة ليرقب الحالة عن كثب فأحزنه ما رأى، فعاد أدراجه ثانية إلى البيت بقلب يعتصره الألم لطول ما فكر فيما سيسفر عنه الغد وما ستقوم به الدعاية البريطانية من استعداء العالم على المصريين، الذين لم يرعوا حقوق الناس ولم يستطيعوا حماية الأجانب المقيمين في بلادهم ولا شك أن بريطانيا ستتخذ من تلك الحوادث الفردية الرعناء مادة خصبة لتشويه الحركة القومية في مصر ووصمها بكل نقيصة ممكنة.

لقد كان كامل مخلصًا لبلاده أعمق الإخلاص ويود لو يفتديها بروحه وماله وأهله وكم كان أمله أن تمضي الحركة القومية في طريقها المستقيم لا تحيد عنه ولا يشوب جمالها أية شائبة أمام العالم..

لكنه عاد يلتمس العذر لمواطنيه ويتهم المجتمع الذي يعيش فيه والذي أباح وجود هذا الثراء الفاحش المغرق في الترف وهذا الفقر المدقع المغرق في الحرمان.. لا شك أن هذا النظام كان في حاجة إلى تغيير كبير حتى تتقارب طبقات الشعب وتتشارك في المشاعر.

أما نبيهة فقد بدا لها البيت بعد غياب الشيخ علي وفاطمة موحشًا مهجورًا وكم من مرة همت بالخروج للبحث عنهما، ولكنها تراجعت مذعورة خشية أن يراها أحد ذوي قرباها في الطريق ممن يكون قد حضر إلى المدينة في هذا اليوم الحافل فيعرفها ويرغمها على العودة إلى القرية وهكذا انقضى يومها في هم مقيم وقلق ورعب.. تتوقع بين لحظة

وأخرى أن يـأتوا إليهـا في البيـت بجـريح أو قتيـل أو يـأوي إليهـا جماعـة مـن الثائرين وهي تتخيل أن أحد أقربائها لا بد سيكتشف مخبئها.

ولقد زاد آلامها ما لاحظته من أمارات الحزن والتفكير العميق على وجه سيدها وشرود ذهنه لكنه تنبه لها أخيرًا وقد تقـدم بهـما الليـل وأخـذ يغريهـا بالنوم بعد هذا العناء والسهر لكنها بدت أمامه خائفة فأذن لها أن تنـام عـلى الأريكة المواجهة لسريـره وأن تـقضي ليلتهـا في حجرتـه حتـى تطمـئن ويفـرغ روعها.

وما إن استلقت على الأريكـة حتـى اسـتغرقت في سـبات عميـق وكـان الليل قد انتصف حينئذ.

أما كامل فلم يستطع النوم رغـم كـل هـذا وظـل يتحايـل عـلى الكـرى وتذبه عن عينيه أفكاره المتلاحقة حتى بزغ الفجر ينتقص من مملكـة الظـلام بجحافل نوره وأخذ النوم يداعب عينيـه ثـم يـنفض عنـه بـين لحظـة وأخـرى عندما تشتد أصوات البنادق والمدافع الرشاشة وتمزق السـكون بشـدة، وأخـيرًا هبَّ واقفًا عندما صك أذنه دوي شديد واندفع إلى الشرفة لينظر ما هناك.

لقـد كـان الصـوت أشـبه بـأزيز بضـعة ملايـين مـن النحـل تحلـق فـوق الـرءوس لكنـه لم يسـتطع أن يتبـين مصـدره عـلى صـفحة السـماء وكانت الشمس قد ارتفعت في القبة الزرقاء مرسلة أشعتها المحرقة على الكـون لكن لدهشته كانت الطرقات مقفرة من النـاس، ولـيس بهـا أثـر للحيـاة وقـد

اختفى الثائرون جميعًا ولم يبقَ أثر للحصار المضروب على القوة الهندية وكأن معجزة قد حدثت فغيرت الكون بين غمضة عين وانتباهتها.

ونظر كامل إلى الساعة في معصمه فأدرك أنه لم ينم أكثر من ساعتين.. ساعتين حدث فيها كل هذا التغيير.

وترامى إليه صوت طلقات نارية بعيدة على الأفق ثم فجأة عاد يطن في أذنيه ذلك الصوت الغريب وأخذ يقترب منه سريعًا حتى أصبح هزيمًا كهزيم الرعد، وبعد لحظة ظهر أمامه على ارتفاع لا يزيد على الألف قدم طائر ضخم يسير في قوة مخترقًا الفضاء محومًا فوق المدينة.

لقد كانت قاذفة قنابل أسرعت من القاهرة لنجدة القوة المحاصرة فألقت قنابلها على الثائرين وتتبعت الناجين تصليهم بنيران مدافعها السريعة الطلقات.

وسمعت أصوات انفجار القنابل الضخمة في كل مكان من المدينة.. بينما كانت الطائرة تنخفض بعد ذلك إلى ارتفاع قريب جدًّا لتفتح مدافعها الرشاشة على المتظاهرين فتحصد الأرواح حصدًا وتنشر رسالة المدنية بين المتأخرين.. وتُري هؤلاء الفلاحين معنى الاستعمار وما ينطوي عليه من وحشية مروعة وظلم مكين.

قاوم المواطنون ما وسعتهم المقاومة وصوبوا بنادقهم العتيقة إلى الطائرة لكنهم اضطروا أخيرًا إلى الاعتراف بالهزيمة وفر من بقي منهم على قيد الحياة.

رفع كامل بصره إلى السماء وانبعثت من عينيه دمعة حرى لم يستطع أن يحبسها وقد أدرك أن الإنجليز لابد منتقمون انتقامًا آخر لمن مات من قواتهم في أسيوط.. أدرك أنهم سيحضرون بإمداداتهم الكبيرة عمَّا قريب لينهبوا البيوت وينتهكون الحرمات ويرتكبوا كل منكر ووحشية تستنكرها الإنسانية باسم الإنسانية وحماية أرواح الأقليات.

وأحس بشخص يقف بغتة خلفه فانتبه من بحور أفكاره واستدار ليرى نبيهة قد استيقظت ورأت الطائرة كما رآها تحوم فوق ترعة الإبراهيمية ثم تعود فتمضي في جو المدينة ذهابًا وإيابًا وترتفع في السماء تارة، حتى تبدو كحشرة ضئيلة وطورًا آخر تنخفض وكأنها تبحث عن مكان تحط فيه الرحال، وهي في تحويمها صعودًا وهبوطًا لا ينال منها التعب ولا تخشى الكلال.. وكأنها فخورة بنصرها الذي لم تستطع فرقة كاملة من الجنود أن تحقق مثله.

وفي الواقع كان لظهور الطائرة المفاجئ في جو المعركة أثر عميق في نفوس الناس الذين لم يروا من قبل مثل هذا الطائر الجهنمي الذي يحمل الموت بين جناحية.

أخذ كامل يتأمل نبيهة وهي تتبع الطائرة بنظرها وقد بدت عليها الحيرة والدهشة واقتربت منها الطائرة بغتة فصاحت "ما أعجبها؟!" وابتسم كامل بمرارة وهو يقول لها "أتدرين ما هذه؟ إنها سلاح جديد ينشر الموت بكلا جناحيه.. لقد أباد الكثيرين من إخواننا وما زال

يحـوم فوقنـا للإرهـاب والتخويـف.. أرأيـت يـا نبيهـة مـاذا يفعـل الاسـتعمار بالضعفاء والأبرياء الذين يطالبون بحقهم في الحياة؟!".

ولم تحر نبيهة جوابًا وكأنها لا تعي ما يقول سيدها بل كأنهـا لم تسـمعه لأنها شردت بنظراتها في الأفق تفكر فيما رأت وفيما سمعت..

ونظر إليها كامل فكأنما كان ينظر إلى شخص آخر غريـب عنـه.. شـخص يحاول أن يفكر لا مجرد دميته التي ألف وجودها في البيت.. ترى فـيما كانـت نبيهة تفكر؟!

واقترب وقت الظهيرة وصمم كامل على الذهاب إلى مقر اللجنة الفرعية ليقف على آخر الأنباء، لكنه سمع وهو يرتدي ملابسه جـرس البـاب الخـارجي يدق وأسرعت نبيهة نحو الباب وقـد ظنـت أن أحـد الخـادمين قـد عـاد لكـن لدهشتها البالغة كان الطارق أفنديًّا مطربشًا في ريعان الشباب حسن الهنـدام والمنظر، ولم يكن القادم بأقل منها دهشة بل قل إنه قـد سـحر بجـمال الفتـاة وحسن قوامها وفتنة عينيها فتراجع قليلًا إلى الوراء بينما صاحت هي: "سـيدي سيدي"، وعادت تعدو وهي تتعثر في خطاها من الخجل تاركة البـاب مفتوحًـا والضيف في مكانه فاغرًا فاه من المفاجأة.

وأسرع كامل نحو الباب متوجسًا شرًّا لكنه مـا كـاد يـرى الطـارق حتـى ابتسم مرحبًا وهو يقول:

"أهلا وسهلًا يوسف بك.. إنـه لشرف كبـير توليـه لهـذا المنـزل المتواضـع بزيارتك".

"بل إني سعيد برؤيتك.. هل تعلم يا أستاذ كامل أني منذ ساعة كنت على استعداد للمراهنة _وأنا ضامن للمكسب_ على أنك تحيا الحياة المثلى للزهد والعفة".

واحمر وجه الأستاذ كامل خجلًا وأجاب وهو في حيرة الطفل الذي ضبط متلبسًا بخطئه: "أجل.. أجل يا سيدي يمكنك أن تراهن وتكسب، فإنك ستلعب على الجواد الرابح ولا شك، لكن تذكر أنني أنسى زهدي في فترات قصيرة محددة.. يا أخي إن الرب في علاه استراح في اليوم السابع بعد أن خلق الخليقة..".

وانفجر الاثنان ضاحكين.

"لك الحق كل الحق يا صديقي في هذه العطلة أو ما سميته بفترات الراحة".

وسرحت نظرات يوسف تتطلع إلى ما وراء الباب علّه يظفر بنظرة أخرى خاطفة لتلك الفاتنة التي شغفته لكنها كانت قد اختفت تمامًا.

وكان يوسف محاميًا وثريًّا من كبار ملاك الأراضي وعضوًا بلجنة أسيوط، كما كان مشهورًا بلياليه الحمراء الصاخبة وبذخه الكبير وكان من بين أعضاء اللجنة الذين لم يشتركوا بدافع الوطنية الخالصة والشهور النبيل السامي، لكن لإرضاء غرورهم وجريًا وراء الشهرة والجاه وحرصًا على أن ينشر اسمه في يوم ما على صفحات الصحف كبطل من أبطال الثورة فيكون ذلك دعامة قوية في بناء مستقبله في المحاماة والسياسة.

كانت تلك أولى زياراته لكامل وقد أتى ليبلغه تعليمات الرئيس لعقد اجتماع عاجل من جميع أعضاء اللجنة فالتقى أول ما التقى بنبيهة فكانت رؤياها مثار عواطف شتى ورغبات متباينة تأججت في صدره.

كان لعينيها فعل السحر في نفسه من أول نظرة تبادلها معها في سرعة خاطفة، كما أثار رغبته ذلك القوام الفاتن الذي شف عنه ثوبها الحريري المحكم الرقيق، لكنه حاول أن يخفي مشاعره عن سيدها وأن يتحول بحديثه إلى المهمة التي أتى من أجلها فقط، فقال: "بم تفسر ما جرى من أحداث؟".

"لقد كانت أحداثًا مؤسفة حقًّا".

"هذا هو الشعور السائد يا صديقي".

"وسيسيء الإنجليز إلى الحركة باستغلالها أبشع أنواع الاستغلال الدنيء سيرموننا بالتأخر والتعصب وكل نقيصة يبرأ منها هذا الشعب الطيب المخلص لقضيته".

"لقد بلغ عدد القتلى والجرحى الذين عرفناهم ثلاثمائة بخلاف الذين أخفاهم أهلوهم خشية العواقب يا سيدي.. لقد كانت مأساة أليمة".

"لقد روعهم ظهور الطائرة وهو حدث لم يكن في الحسبان.. إيهِ، إنها دروس لنا من الشعوب المتمدينة".

"إذا تمكن الغاصب من القبض على أزِمَّة الأمور ثانية فربما كنا من ضمن المتهمين بإثارة هذه الفتنة".

"لا شك في ذلك".

"وعلينا إذن أن نستعد لكل الاحتمالات".

"لا تخف.. ولعلك تقدر أن كل رجل يتعرض للخدمة العامة يجب أن يكون على استعداد لبذل التضحيات أيًّا كان نوعها".

وبعد أن فرغا من تناول القهوة نزلا معًا وركبا العربة التي كانت في الانتظار بالباب وأخذت تذرع بهما شوارع ما زالت مقفرة من الناس.

أما نبيهة فقد عاد إليها الشيخ علي وأخذ يسرد على مسامعها أنباء الثورة المروعة وما لاقاه من أهوال في يومه السابق وما فعله الناس وأساليب العذاب والوحشية التي قاسوها على أيدي الإنجليز.

ثم اعتزلت في أحد أركان البيت وسرحت ببصرها في الأفق تفكر في أمر هؤلاء الإنجليز وأمر هؤلاء الناس من بني وطنها.. إن منهم أهلها وأقاربها.. وإخوتها الذين يلقون الموت لأنهم يطالبون بحقهم في الحياة فيأبى عليهم الغاصب إلا العيش الذليل في أحضان البؤس والشقاء.. هل تستطيع أن تعمل شيئًا؟

وابتسمت ساخرة من نفسها عندما تذكرت ارتباكها وخجلها لمواجهة يوسف بك.. رجل واحد بينما عليها أن تكون أثبت جنانًا

وأكثر رباطة جأش وأقدر على مقابلة الرجال والنساء وكل مخلوقات الأرض إذا أرادت أن تفعل شيئًا من أجل بلادها.. يجب عليها أن تتحلى بالشجاعة والجرأة والإقدام بلا تردد أو وجل.

لكن هل يقبل كامل أن تشترك هي في المعركة؟ إن قبوله مستحيل ولا شك.. ولعلها لو فعلت لغضب وثار.. وستفقد حينئذ المأوى والمأمن.. ستفقد صداقة هذا الرجل الكريم الذي آواها ورعاها وكان دائمًا عند حسن ظنها ولم ترَ منه ما يسيئها خلال خمسة أشهر كاملة.. بل إنها لتحس بأن لها مكانة أكبر من كل هذا عنده.

وهبه وافقها على العمل فماذا في إمكانها أن تفعل من أجل بلادها؟! لتعمل أي شيء.. لتضمد الجراح.. لتحمل الزاد.. لتطهو الطعام.. لتحمل لرسائل.. لتقتل الإنجليز.. ولم لا؟!

لا لا.. لا محل للتردد بل يجب عليها أن تعمل ولتضحي براحتها وهنائها في سبيل بلادها.. وماذا تكون هذه التضحية إلى جوار تضحية من باعوا أرواحهم رخيصة في سبيل مصر.

وأخذت الأفكار تعذبها وتتردد على رأسها فتحيرها وهي بين إحجام وإقدام وتحاول أن تغرق نفسها في أعمال المنزل دون جدوى وفجأة تذكرت أن هناك بعض ملابس في حاجة إلى الغسل فشرعت في ذلك في حماسة حتى تبعد الأفكار عن رأسها قليلًا، لكنها لم تلبث إلا قليلًا ثم ألقت بما في يديها ونهضت.

واستمرت في قلق واضطراب لا تكاد تستقر في مكان حتى تقوم عنه ولا تبدأ في عمل حتى تتركه إلى أن حان وقت الظهيرة وعاد كامل من الخارج بوجه كاسف حزين ونظرات شاردة مضطربة، فلم يلحظ من أمرها شيئًا ودلف سريعًا إلى غرفته دون أن يتحدث إليها بشيء.

وتناول كامل الغداء ثم خرج مباشرة بعد أن قال لها إنه ربما يتأخر الليلة وأنه سيتناول العشاء مع صديق له في النادي.

لم يخطر ببال كامل قط أن هناك رجلًا في تلك اللحظة _يعتبره من أعز أصدقائه_ يدبر بين جدران قصره المنيف الذى تحيط به حديقة جميلة أدنأ خطة للقضاء على سعادته.

كان ذلك الرجل يذرع مكتبه المؤثث بفاخر الرياش ذهابًا وإيابًا في خطًى مضطربة وعصبية ظاهرة وكان يحس بالضيق رغم أنه لم يكن يرتدي سوى "البيجامة".. وكان ينفث بين لحظة وأخرى دخان سيجاره الهافانا الضخم في جو الغرفة ويتأمل سحب الدخان التي تنعقد حول وجهه أو فوق رأسه في شرود تتخلله أحيانًا ابتسامة شيطانية ترتسم على وجهه وتلتمع عيناه ببريق التحفز والنصر، يعبث في زهو بتلك الماسة الكبيرة التي تزين خاتمه الذهبي وترسل أشعتها الخاطفة في أرجاء المكان كلما لوح بيده اليسرى في الفضاء.

"أهكذا..؟!" كان يتحدث يوسف إلى نفسه ثم انفجر ضاحكًا عندما تبين أنه وحيد في الغرفة وأن أحدًا لا يستمع له، لكنه عاد

يفكر في الوسيلة التي تحقق رغائبة الجامحة: "إن خادمي محمود ابن عم الشيخ علي طاهي كامل، الذي سيعمل لحسابي ولا شك سيكون واسطة العقد في الخطة كلها.. لا أحسب أن التاريخ شاهد عصرًا سهُل فيه الإتجار بالإنسان كهذا العصر.. فبأقل مخاطرة يمكن تحويل الفريسة الجموح إلى أمة خاضعة ذليلة.. أجل عندما يظهر بريق الذهب يركع له جميع الفرسان.. الأصدقاء والمعارف والأقارب وأمناء الخدم.. الجميع يتنكرون للمبادئ والأخلاق والواجب أمام صاحب الجلالة الجنيه عندما يدخل إلى جيوبهم في خفة وكتمان".

وقهقه يوسف بصوت مرتفع في رضًى عن أفكاره العبقرية ومضى يستأنف تفكيره ويسبح في خيالاته الرائعة، والآن فيما يتعلق بتلك المخلوقة الصغيرة يجب أن يبدأ "التكتيك" باختبار قوة احتمالها ومدى ارتفاع حصونها بالنسبة إلى الذهب.. فمثلًا كم يكفيها من المجوهرات البراقة.. الأحسن أن نرسل إليها بعض الملابس الجميلة والحلي الرخيصة كعربون لصداقتنا.. ثم دعاية ضخمة دقيقة عن عظمة قصري بالنسبة إلى مسكن كامل الحقير.. عرباتي الفخمة.. والعائمة التي تربض على شاطئ النيل حيث نقضي الليالي الحالمة.. لا شك أن كل هذا سيغريها ويوقعها سريعًا ويرضي طموحها وغرورها كامرأة.. وأي امرأة استعصت عليك يا يوسف بك؟".

وعندما وصل من تفكيره إلى هذا الحد ضرب بقبضته في قوة على منضدة صغيرة أمامه، وقال بصوت مرتفع كما لو كان يختم مرافعة ناجحة أمام المحكمة: "أجل يجب أن أكسب هذه المعركة.. يجب أن أرغمها على التسليم بكل وسيلة وبكل سلاح ممكن".

وانقضت على ذلك الحادث بضعة أيام كانت أسيوط ترزح أثناءها تحت سيف الإرهاب وسوط الأحكام العرفية مصلتًا على الرقاب والاعتقالات لا تنتهي، بل كل يوم يلقى القبض على العديد من الأعيان وأصحاب الرأي في المدينة، والأحكام العسكرية تنفذ سريعًا بعد محاكمات صورية لم يشهد لها التاريخ مثيلًا، تنتهي بإعدام الأبرياء من المصريين من كل من حامت حوله شبهة الاشتراك في مظاهرة الأحد المشهود.

وكانت الإمدادات البريطانية لا تنقطع عن الوصول إلى المدينة بينما القطارات المسلحة تسير في كل اتجاه لتلقي الرعب في قلوب الآمنين من الناس والطائرات لا تكف عن تحويمها فوق القرى والبلاد بحثًا عن أماكن الأعداء أو مخازن السلاح المزعوم.

وهاجمت القوات الغاصبة بعض القرى والبلاد بحثًا عن المصريين الهاربين من وجه العدالة البريطانية فهدمت البيوت وسلبت الأقوات وانتهكت الحرمات وحظر المرور من بعد غروب الشمس في أسيوط وما حولها من بلاد المديرية.

وحكمت المحكمة العسكرية الإنجليزية بالإعدام على مأمور بندر أسيوط، فعمت الناس موجة من الأسى والحزن على رجل عرف بالنزاهة والإخلاص في عمله والوطنية.. ولقد نفذ فيه الحكم فورًا ليكون عبرة للوطنيين.

وأصبح كلام الناس في المدينة همسًا وحرم عليهم التحدث في السياسة.. لكن النفوس باتت تغلي فيها مراجل الحقد والغيظ المكظوم..

أما كامل فقد أخذت الأيام تمر به ثقيلة مؤلمة وأصبح في حال نفسية سيئة للغاية، للخيبة التي أحس بها بعد تفرق صحبه عنه وبات لا يلتقي أحدًا من أعضاء لجنة أسيوط المركزية وتغيرت نظرته إلى الحياة وأخذت تنمو في رأسه فكرة سوداء عن الحياة وقيمتها وجدوى العيش فيها.

وكان مما يحز في نفسه أكثر من كل شيء ما يراه من انقسامٍ بيِّن في صفوف الأسيوطيين ولطالما حذر إخوانه من عواقب الشقاق وما يجلبه من سيئ النتائج على كل عمل في الوجود.

وكان يعجب إذ يرى نبيهة يعتريها وجوم كوجومه وصحتها تضعف على مر الأيام، وكأني بها تشاركه آلامه أو حل بها أمر خطير، ولقد جذبته المحنة إليها أكثر من كل وقت مضى وأضحى يحس أن نبيهة أصبحت ضرورة من ضرورات حياته وبدأ يشك في آرائه السابقة

عن الزواج وأخذ يراود نفسه بالرجوع عن تلك الآراء، بل لعله فكر يومًا في أن يرتبط مع نبيهة برباط الزواج المقدس إلا أنه ظل مترددًا أمام قيود مهنته ومركزه الاجتماعي.. من يدري.. لعله جبن أمام قيود المجتمع أو لعل الأيام لم تمهله.

وطرق الباب في منتصف ليل أحد الأيام طرقًا شديدًا فهب كامل من فراشه مذعورًا واندفع نحو الباب وكانت نبيهة في أثره وما إن فتح الباب حتى طالعته أربعة وجوه حمر تصوب إليه فوهات المسدسات وأمره الجنود الإنجليز بعد أن تسلل اثنان منهما إلى داخل المسكن أن يسرع بارتداء ملابسه والنزول معهما.

وأطاع الأمر وارتدى ملابسه وسار بينهم إلى الباب ثم التفت ليلقي نظرة وداع على بيته فرأى نبيهة ترقبه وقد انهمرت الدموع من عينيها مدرارًا فقال لها: "لك الله يا نبيهة" ثم أشاح عنها بوجهه وأسرع بالخروج وهو يغالب الدموع في عينيه وصرخت هي وراءه: "سيدي سيدي.. سننتقم يا سيدي".

وما إن أشرقت شمس الصباح وارتفعت في كبد السماء حتى كان يوسف قد حزم أمره واشترى متاعه وهداياه وأرسلها إلى نبيهة وأخذت فاطمة تزين لها لقياه فالتفتت إليها في دهشة تسألها:

"أأنت يا فاطمة التي تطلب مني هذا؟! عجبًا لهذه الحياة".

"يا سيدتي هذا كنز وفتح لنا..".

"وأين الوفاء؟".

"إن هذا هو عين الوفاء.. أليس سيدي كامل في حاجة إلى محامٍ؟! ألسنا في حاجة إلى طعام وشراب؟".

"لنعمل..؟!".

"وأين العمل؟! وما سنكسب من العمل؟! بضعة قروش لا تكفي لعيش بغير إدام".

"أليس ذلك أكرم؟".

يا سيدتي إن الأيام لا تجود كل يوم بمثل يوسف بك".

الأيام.. أجل ما أقسى الأيام التي لا تنساها أبدًا وكأن بينهما ثأرًا لا ينتهي.. والواقع لم تكن نبيهة مهتمة لحديث فاطمة كثيرًا بل كانت شاردة النظرات وكأنها تبحث عن شيء وراء الأفق وأخيرًا صمتت طويلًا واستغرقت في أفكارها.

حقًّا لقد عاشت في هذا البيت أشهرًا عددًا، لكن سيدها كان أنانيًّا إلى أبعد حدود الأنانية، فلم يذكر يومًا أنها مخلوق مثله من لحم ودم وعاطفة ووجدان وطموح وكرامة وتوقٍ إلى العدل ونيل حقوقها في الوجود.. ولقد سألته مرة أن يحدد وجودها فأبى عليها ذلك.. أبى أن يرفع مكانتها إلى أكثر من بغي تبيعه جسدها لقاء لقمة العيش التي تسد الرمق، ومع ذلك فقد أخلصت له إلى أبعد حدود الإخلاص فحافظت عن شرفه وكرامته وبيته بينما لم يفكر هو إلا في نفسه.

وإذا كانت هي اليوم بغيًّا في بيته فلن يكون هناك فارق بين بيته وبيت يوسف أو أي بيت سواه.. فما أتعس نصيبها في الحياة.. وما أشقاها بهذه الحياة إلى جوار كامل حشرة ضئيلة لا يحس لها المجتمع وجودًا.

على أية حال ليس الوقت وقت عتاب بل نحن جميعًا في محنة وكامل يؤدي ضريبة الوطنية راضيًا، وعلى كل مصري أن يؤدي واجبه نحو بلاده.. وما أظنني إلا أني أديت واجبي نحو كامل تامًّا غير منقوص، وفي الانطلاق والحرية سأكون أقدر على خدمة بلادي ولأضحى شيئًا ما، فما أرى لحياة البغي قيمة فلأقدمها رخيصة في سبيل الناس ولطالما ذكرني أننا جميعًا في الوطنية سواء وعلى جميع المصريين واجب نحو بلادهم.

والتفتت نبيهة فجأة إلى فاطمة وقالت لها: "هلم بنا.. إلى يوسف بك".

ذهبت إلى يوسف وقضت في بيته بعض الوقت الذي سعد به، ثم استأذنت في انصراف فقال لها: "وعلام العجلة..؟".

"إني عائدة إلى بيتي".

"ألم يقبض على كامل؟".

"بلى ولكني لن أعود إلى بيته".

"فلماذا إذن لا تبقين عندي؟".

"لا يا سيدي إن لي بيتًا يزورني فيه الناس جميعًا.. أتعرف بيت الست نفيسة؟ هناك ستجدني دائمًا طوع أمرك".

وغادرت نبيهة المكان وهي تغالب دموعها وتوجهت من فورها إلى منزل الست نفيسة التي فتحت لها، وما إن رأتها حتى اعتنقتها وأشبعتها تقبيلًا وهي تردد بين لحظة وأخرى: "لقد كنت واثقة بأنك ستعودين إليَّ.. لقد كانت نزوة طائشة من نزوات الشباب.. لا عليك، إني كوالدتك تمامًا..".

كان المنزل مكتظًا بمن فيه من الجنود الإنجليز الذين أتوا ليطفئوا سعارهم إلى اللحم البشري وليفرغوا شهواتهم البهيمية وما إن أشرقت عليهم نبيهة بطلعتها حتى التفوا حولها، وكل يحاول أن يجذبها إليه أو ينفرد بها أو يظفر منها بقبلة، وتضاعف رواد منزل الست نفيسة سريعًا بمرور الأيام.

أما نبيهة فكانت تجمع كل ما يصل إلى يديها من مال وفير سواء كان من جنود الأعداء أو من يوسف ومن على شاكلته وتسلمه إلى من بقي خارج المعتقل من أعضاء لجنة أسيوط لينفقوا منه على أسر المعتقلين وليشتروا السلاح الذي يساعد على بقاء الثورة قائمة وعلى الانتقام من المستعمرين.

لكن جذوة الانتقام ممن خربوا بلادها وأجاعوا وقتلوا أهلها وإخوتها كانت تزداد ضرامًا في صدرها يومًا بعد يوم فسلكت لإطفائها سبيلًا آخر.

كانت في كل ليلة تصطفي جنديًّا إنجليزيًّا ليقضي الليل معها وتغريه بالإفراط في الشراب ثم بإشارة اتفقت عليها يحضر إليها خادم أمين من خدم البيت فيجهزون عليه خنقًا أو ضربًا بالعصي وقبل بزوغ الفجر يتعاونان على حمله وإلقائه في المزارع الكائنة في غرب المدينة تحت التلال.

وأزعج القيادة البريطانية اختفاء جنودها المتوالي فشددت الرقابة على منزل الست نفيسة وذات ليلة قبض على نبيهة والخادم الأمين ومعهما الضحية الجديدة.

وحوكمت سريعًا وحكم عليها بالإعدام، وعندما حانت ساعة التنفيذ التفتت إلى الضابط المنوط به الأمر وهمست: "لقد قتلت عشرين إنجليزيًّا. فهل أديت واجبي كمصرية؟!".